روايات الهلال

# النوم الخاطف

أندريه شديد



رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

روايات الهلال
العدد ٥١٢
اغسطس ١٩٩١ ● صفر ١٤١٢ هـ
NO . 512 - AN 1991

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal
سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرين جنيها فى ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا فى البلاد العربية . وخمسة وعشرون دولارا لباقى دول العالم . والقيمة تسدد بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

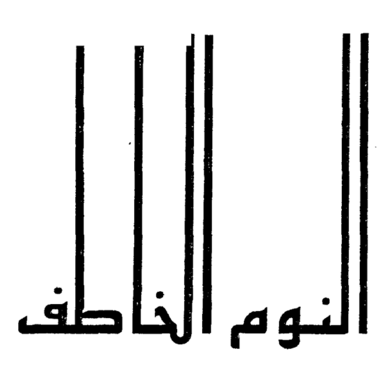
للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفاة ص ب ٢١٨٣٣ ( 13079 ) ت ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك ( المبتديان سابقا ) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ ( ٧ خطوط ) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 HILAL U . N
فاكس : FAX 3625469

## أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشا

الأردن ٢ دينار ، السعودية ١٢ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٠ درهم ، البحرين ١,٢٠٠ دينار ، الدوحة ١٠ ريال ، دبى/ابوظبى ١٠ درهم ، مسقط ريال ، غزة والقدس والضفة ١,٥٠ دولار ، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريال ، لندن ١,٥٠ جك .




تأليف : أندرية شديد
ترجمة : صادق سليمان

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

LE SOMMEIL DELIVRÉ

تأليف

ANDRÉE CHEDID

الغلاف بريشة الفنانة

سميحة حسنين

# قبل أن تقرأ

فى العدد رقم ٢٣ من مجلة « شئون عربية » الصادرة باللغة الفرنسية فى نوفمبر ١٩٨٨ ، وتحت عنوان ، إننى أحمل شرقيتى فى داخلى « أجرت المجلة حديثاً مع الكاتبة المصرية اندريه شديد بمناسبة صدور كتابها الأخير عن « عالم المرايا الساحرة » .

لا شك أن عنوان هذا الحديث يعد بمثابة مدخل حقيقى لفهم عالم اندريه شديد . وخاصة فى روايتها « النوم الخاطف » كما شاء للمترجم أن يكتبها . أو « نوم الخلاص » كما نشأ أن نترجمها . وقبل أن نتحدث عن « المصرية » فى هذه الرواية . يهمنا أن نقدم للقارىء العربى لمحة عن عالم اندريه شديد . ففى نفس الحديث اشارت الكاتبة إنها قد استلهمت أعمالها من منابعها الشرقية : « أنا سعيدة . اننى أعيش فى أماكن متعددة . أنا أعيش فى ثراء خاص . فى حرية . وقد اشرت اننى ليس لدىّ النية ان اقتلع جذورى بشكل مأساوى . فهذا الأمر ليس سهلاً بالنسبة لى . فأنا أحس إننى أنتمى إلى الشرق والغرب . وقد كتبت كثيراً عن مصر ولبنان . وهى وطنى الحقيقى .بالنسبة لى . فان الكثير من العناصر تتلاحم وتتناطح وهـذا يسبب لى دوما السعادة أن أسمـع ان « اليوم السادس » و « يوم الخـلاص » مثلا كتب واقعية عن مصر . يجب أن نحتفظ بشىء ما فى العمق . ونحن نعبر بلغات مختلفة » .

ولأندريه شديد حصيلة أدبية قدمت فيها ثلاثة عشر ديوان شعر . وتسع روايات . ومجموعتين قصصيتين . وثلاث مسرحيات . وبحثين عن لبنان . وثلاثة سـيناريوهات . نالت عن أعمـالها خمس جوائز أدبية .. وتنتمى ، كماشارت ، إلى بلدين عربيين . الأول هو لبنان بحكم أصل الأسرة ( صعب ) . ومصر بحكم المولد والنشأة والثقافة . ومع هذا فان أعمالها المترجمة إلى اللغة العربية قليلاً

.فهذه هى الرواية الثالثة المترجمة لها بعد « اليوم ا لسادس » و« نفرتيتى ، وحلم أخناتون » .

ورواية « نوم الخلاص » ابلغ دليل على أن كاتبتها مصرية المشاعر ، وعن هذا العالم الثرى الذى سنغوص فيه من خلال هذه الرواية ، بلغة فرنسية . فهى تثير تساؤلا عن الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية . هل ننفى عنهم هويتهم المصرية لأنهم ، بحكم تربيتهم ، يجيدون الكتابة بالفرنسية . مثل جورج شحادة والبير قصيرى وجويس منصور وغيرهم .

ولا شك أن أندريه شديد هى أشهر كاتبة مصرية تكتب باللغة الفرنسية . ولدت فى مدينة القاهرة فى عام ١٩٢٩ . وتلقت دراستها فى المدارس الفرنسية بالعاصمة . ثم ما لبثت أن رحلت لبنان لتنتظم فى جامعتها . ثم عادت إلى القاهرة . وحصلت على دبلوم الصحافة من الجامعة الأمريكية . وتستقر فيها فترة من الزمن قبل أن تسافر بصفة نهائية إلى فرنسا فى عام ١٩٤٦ عقب زواجها من لوى شديد . الذى حملت اسمه ، فقد كان على الزوج أن يسافر إلى باريس للدراسة فى معهد لوى باستير. وهو يعمل الأن باحثا فى فلوريدا بالولايات المتحدة .

تبلورت موهبة أندريه شديد وهى فى القاهرة . وصدر ديونها الأول « فوق دروب خيالى » عام ١٩٤٣ ، وهى فى الرابعة عشر من عمرها . فى فترة كانت القاهرة تطبع كتب أبنائها باللغة الفرنسية مباشرة . مثلما حدث مع الإبداعات الأولى لا بيد قصيرى . وتقول أندريه شديد حول هذه التجربة : « فى عام ١٩٤٢ . كنت صغيرة . أركض وراء فراشات القاهرة .فى تلك الأونة . لم تكن تراودنى فكرة الكتابة . غير أننى اردت أن أصنع شيئا ما فى حياتى . التى لم تكن تتعدى المسرح والرقص . والتمثيل ، وبالصدفة وحدها بدأت برسم – ولا أقول الكتابة – بعض الأبيات من الشعر بالعربية والإنجليزية ، عبرت عن العنف والموت وهدف الحياة . ونشرت أعمالى باسم مستعار هو أندريه لايك . منعاً للشبهة .

« بقيت على هذا الحال حتى عام ١٩٤٦ . دخلت إلى مكتبة تبيع مطبوعات شرقية .نقلت أسماء المجلات كي اتصل بها . رحب بى ناشر كان هو أيضاً الناشر الأول لشهادة »

« فى عام ١٩٤٨ انعطفت نحو القصص . نشرت حكايات عن مصر فى مجلات مختلفة . ثم نشرت روايتى الأولى « نوم الخلاص » التى تدور حول مصير المرأة الشرقية ومصاعب حياتها فى شبكة العلاقات السائدة .البطلة تدعى سامية . وهو مسحوقة الشخصية. تفرض عليها عائلتها زوجا قاسيا يمنعها من التعبير عن أرائها بعد سلسلة من المشكلات الحادة تحدث ابنتها وفى ذروة اليأس تقتل زوجها ، ( انظر حديث الكاتبة إلى مجلة المصور فى ٢٣ يونيه ١٩٨٨ ) .

واندريه شديد شاعرة ، وروائية ،وكاتبة قصص قصيرة ومسرحيات . من أشهر أعمالها الشعرية : « كلمات عن قصيدة » و « كلمات عن الأرض الجديدة » و « الوجه الأول » .و « أعياد ونزوات » و « الوطن المزدوج » و « أرض شعر » و « الوجه وحده »

أما أول رواية فهى ، كما أشرنا « منشورة عام ١٩٥٢ والتى نقدمها اليوم فى روايات الهلال . ثم جاءت رواية « اليوم السادس » عام ١٩٦٠ . و « دروب الرمل » ١٩٨٢ .وهناك أيضاً رواية « نفرتيتى وحلم أخناتون » . وفى المسرح قدمت « برنيس المصرية ». والجدير بالذكر انها قد فازت بجائزة جونكور . للقصة القصيرة عام ١٩٧٩ عن كتاب « الاجساد والأزمنة » . ومن أهم الجوائز الأدبية التى حصلت عليها جائزة النسر الذهبى للشعر عام ١٩٧٢ . كما فازت فى عام ١٩٧٥ بجائزة الأكاديمية الملكية البلجيكية .

وقد حولت السينما رواية للكاتبة إلى فيلمين . الأول هو « اليوم السادس » ليوسف شاهين عام ١٩٨٦ . ثم « الآخر » لبرنار جيرادو عام ١٩٩٠ .

تقول فى حديث نشرته مجلة « بارى ماتش » - ٣ ديسمبر ١٩٧٨ - حول إهتمامها الشديد بمصر فى أغلب أعمالها : هناك فى مصر شىء ما عالمى . ومهم

فى وسط مدن العصر . فمصر بالنسبة لى ليست فولكلور . وليست حنينا ولكنها أرض عامة بها رجال ونساء قادمين من كل الأزمنة . واشعر أنهم معاصرون لى ».

وللتوغل فى إبداع الكاتبة فقد اخترنا من كل نوع أدبى نمونجا هاما وبارزاً . عدا الرواية حيث أخترنا ثلاثة نماذج لأهميتها . فمسرحية « برنيس المصرية » هى أهم أعمال الكاتبة . وهى تصور مدينة الأسكندرية بين عامى ٥٨ و ٥٥ قبل الميلاد . أبان حكم أوليت ، أحد ولاة بطليموس الذى أولاه المدينة وذهب يستكمل فتوحاته . وأوليت رجل طيب . يحب الشعر والفن . لذا يطلقون عليه اسم « عزف الناى » ويتكلم الرواية ستـرايون عن الحاكم قائلا أنه نموذج حى للشرف والفضيلة . وهو رجل خيالى .يحب الرقص والصراخ . والعزف على الناى رمز الحزن والشجون العميقة .

وذات يوم يقرر الحاكم أن يترك العرش لابنته الشابة برنيس . وهى نموذج مماثل لأبيها كما أنها الشقيقة الكبرى للملكة كليوباترة السابعة . وكى تستقر فوق العرش . فإن برنيس تتزوج من اركلاوس . ويشكلان معاً ثنائيا بسيطا يتصرف ببساطة أمام الآخرين . رسالتهما هى تدمير كل بقايا الطغيان الذى كان يمارسه بطليموس . لكن هذا ليس بالأمر السهل . وكى ينجحا عليهما الاستعانة بالشعب ..

لكن ، بعد ثلاث سنوات من الفتوحات المتتالية يعود بطليموس مرة أخرى . آملا أن تكون الأمور قد سارت على هواه . ويصدم بالزوجين يقفان ضد عودته بكل مايملكان . فيقرر أن يستعين بالقائد مارك انطونيوس الذى يدخل المدينة بجيوشه ويأمر بإعدام برنيس وزوجها ، وهنا تقرر كليوباترة أن تدخل حلبة الصراع . وأن تدافع عن الحق بعد موت أختها . وها هو عازف ناى صغير يطوف بضواحى المدينة . يغنى حكاية الملكة برنيس المصرية ماتت على أيدى الطغاة .

وفى الإبداع الشعرى قدمت أندريه شديد تجارب بالغة الجوانية . وأشعارها يصعب ترجمتها إلى أى لغة . فهى تعزف على معانى الكلمات من خلال مقاطعها

وكلماتها القصيرة . وتؤمن أن « حمام الشــعر هو الغموض . ويجب على الشعر أن يغوص داخل دهاليز مليئة بالأسرار والألغاز والطلاســم . : « أحاول قدر الإمكان أن أبين الأشياء جلية . لكن هناك أشـياء مختلفة فى الشعر ويجب أن تكون لنا فيه دروب جديدة » .

وعن الشـعر أيضاً تقول أندريه شديد : « أن العـالم الهائج الغامض السرى الذى نحمله فى داخلنا يفتش عن نوافذ يطل منها إلى الخارج .الشعر أحد هذه النوافذ إنه خارج الأعمار والأجناس والألوان والجغرافيا . أنه مرادف للحرية . أو بديل لها . لا تحده حدود القسوة أو الدم . انه قصائد أحيانا . تنسال منها الدماء تتساءل عن الموت والحياة والحب والمرأة . والظمأ إلى سعادة لاتكتمل ابدا .

« الشعر جواب عن كل كائن . وينطوى على ضرورات لانعرفها . يجب صقل العجينة الشعرية وتطويع الكلمات للوصول إلى التعبير الأكثر دقة وإيحاء . والقبض على أسرار الحياة . كل هذا يتطلب إنتباها وعملا وبحثا بلانهاية .. »

❂❂❂

تدور أحداث رواية « النـوم الخاطف » فى قرية مصرية . فى الصعيد . وذلك من خلال نموذج نسائى مطحون . هى سامية التى تعتبر رمزاً واضحا فى عالم الأدب النسائى .. فهي وحدها عاجزة أمام ضغوط التقاليد والقيم المادية البالية . ذلك المنظور الضيق إلى المرأة .فـهى سلعة دائمـا للرجل . تبـاع له . ويشـتريها حسب حاجته . ويتعامل معها كأنها قطعة أثاث يجب أن تقوم بدور محدد وبالطريقة التي يودها الرجل . سواء كان هـذا الرجل هو الأب أو الأخ . أو الزوج .. فالأب لايتـواني عن بيع إبنته من خلال تزويجها قبل أن تشعر الأسرة أفلاسها . ولأخ لايتكلم الافى هذه الحدود . أما الزوج فهو يشترى هذه البضاعة لأنها ستدر عليه عائداً لابأس به .. ثم هو يتعامل معها كشىء . مجرد شىء فى البيت يجب الإستفادة منه واستعماله من وقت لآخر أى قطعة أثاث فى البيت .. لها ضروريتها ولايمكن الإستغناء عنها . فهى مصنوعة للجنس . ولبعض الأعمال

الأخري . وليست سامية الزوجة الطفلة هى فقط هذه المرأة .. فالأخت قد تجىء كى تقوم بنفس الدور حين تصاب سامية بالشلل . وطالما أن هنالك « أداة » تقوم بالدور فلاضرر .. فالحياة تستمر .

وقد نجحت اندريه شديد فى رسم صورة هذا العالم الريفى الخالص . من خلال كلماتها المعبرة عما يعتمل في النفس من أحاسيس ومشاعر المرأة المصرية المطحونة . وفي خلال سطور الرواية يمكن أن نكتشف صدق العبارة التى أكدت عليها بأنها مرأة للشرق الذى يعيش فى داخلها .

« الزوجة المتعلمة سامية . لاتجد الأنس ولا الفة فى بيت زوجها بطرس . الزوج الفظ المتبلد المنصرف إلى مادية وحسابات . لكنها تجد المودة والسلوي وهدوء البال وراحة النفس مع أم الخير وابنتها زينب . مع الطفلة آمال ، مع الأعمى حكيم القرية يجد صدى بين العمامة القطنية الناصعة البياض ، والصوت الذى يجد صدى له بين القليل من الرجال .

« وهكذا جسدت لنا الحب الحقيقى علي أرض مصر كما كتب مترجم الرواية – بين سامية وأهل القرية البسطاء الأنقياء والأتقياء . وهكذا حين يقطع الزوج الطريق عليها بصلف واستبداد جهول يصل إلى حدود التطاول على كرامتها . لاتلوذ الابهم . ولاتلجاء الا اليهم بعد أن أوصد الأب كذلك باب العطف والحنان أمامها وبعد أن خذلها وأقر كل مافعله زوجها »

أما رواية « اليوم السادس » فتدور أحداثها من خلال أمرأة عجوز تدعى صديقة تذهب إلى قريتها براوت للعزاء فى وفاة أحد أقاربها . فالكوليرا قد صالت وجالت . لقد تركت صديقة حفيدها حسن ليوم واحد كى تقابل أهلها بعد سبعة أعوام من الفراق . وفى القرية يردد صالح لها : « بوسعك أن تعودى من حيث أتيت . لقد وصلت بعد فوات الأوان . ولم يعد هنا سوى الأموات لاستقبالك » . فالكوليرا تحوط العجوز فى كل مكان . تلك المرأة التي لم تعرف فى حياتها سوى الحزن . ماتت ابنتها منذ فترة قصيرة . وتركت حفيدها « حسن » لتربيته .

وتجتاز أهمية هذه الرحلة إلى القرية من خلال ماجاء على لسان صالح أيضا فى الصفحات الأولى من الرواية إن « الكوليرا لاتهم أهل المدن فى شىء أنها تهمنا نحن فقط » .

وصالح هذا فى حد ذاته رمز كبير للعجوز .فهو يحدثها على أحوال القرية ومرضاها .والأسرة التي مات منها أحد عشر شخصا وذلك من خلال حوار طويل دار بين الأثنين وفى هذه الزيارة أيضا تعرف أن زوجها سعيد يجد من يتولى أمره فى غياب العجوز . ومن خلال هذه الزيارة تبدو المرأة قد تحجرت مشاعرها لكثرة ماسمعت عن أخبار الموتى من الكوليرا . ولا يحس هذا التحجر سوى مرض سليم بعد عودتها إلى المدينة ثم مرض حفيدهالقد تركت الجدة حفيدها عند الأستاذ سليم من أجل أن تذهب للعزاء . وسليم عند أندريه شديد رمز لأمل كبير لايموت لذا يجب ألا يموت حسن مهما كان الثمن . فهذا المعلم يرتدى ملابس على النمط الأوربى : « كان كل شىء فى هذا الشاب يوحى لها بالثقة .. كانت تجد وجهه جميلا وسيماً . ونظرته مشرقة . أما إبتسامته . فكانت تصفها بأنها « قطر الندى » . ولكن عندما كان يحدث للأستاذ سليم أن يبدى رأيه فى الجهل والفقر والعلم ، كان وجهه يتغير فجأة وتتوهج أذناه ويتدفق الدم فى شرايين صدغه . وتتصارع الأفكار الكثيرة فى رأسه . »

وبعد رحيل المدرس راح حسن يتسكع فى كل مكان بين أوقات الوجبات . ولم تكن جدته تراه أياما بأكملها وكم تسلل كالقطط بين الحارات مما يعنى أنه فقد حبله السرى ويؤهله للإصابة بالمرض وذلك كان سبباً لهرب جديد تقوم به صديقه .. إمرأة طاردتها الآلام دوما وها هى تتجدد : « الذى يرقد هنا ليس سوى صورة ، لطفل الغد . إن اليوم لايعدو شيئا مادام الغد يقترب بعد أربعة أيام من الآن .

وتستقل أم حسن مركباً فى اليوم السادس ، يصبح كل من فوق المركب جسداً واحداً يسعى لتوصيل حسن إلى البحر مهما كانت الصعاب . كالمروض وصاحب

السفينة والنوتى وأبو نواس . فهذا الأخير يردد من أعماق قلبه : إنه حى إن الغد يفيض حياة .. ثم يصيح النوتى وقد أنار وجهه . : « القوة عادت اليه » . أنه يضغط فى يده الصغيرة على أصبع النوتى . أما المروض أو كازيون فيعلن فى فرح : « هل تسمعينى ، ياأم حسن ، إننى أعلن لك النبأ السار ، الطفل سيرى البحر ! »

الرواية الثانية التى ستتناولها هى « دروب الرمل » التى تدورأحداثها فى القرن السادس الميلادى ، هناك ثلاث من النساء يتركن مدينة الإسكندرية متجهات نحو الصحراء . أعمارهن متباينة . كتباين الأسباب التى دفعت كل منهن لاجتياز الصحراء . وهن مارى . أناستاسيا وسير . عن هذه المسيرة يتكلم رجل عجوز يدعى تميس . وهو الراوية فى « دروب الرمل » . يقول أن ماري حسناء من أسرة نبيلة . تركت الإسكندرية بعد أن أحست أن الروح القدس تناديها . لكن الصحراء لاتثبت أن تحطم جمالها وتستهلكه . تنتابها هواجس ثقيلة وتهفو علي ذاكرة ذكريات الأمس التى عاشتها فى المدينة . لقد كانت إمرأة تتمتع بالحس والشهوات . أحبت الدنيا وتعلقت بها . وعندما شعرت بأن الحياة إلى زوال قررت أن تهجر كل هذا العالم .

أما المرأة الثانية أناستاسيا فهى زوجة لأسرة مثالية وسعيدة إلى أن جاء اليوم الذى عذب فيها المتعصبون إبنها الأصغر . طفل قبض عليه بين مجموعة من البالغين الذين يهتفون بإيمانهم . يشعر الأخ الأكبر أنطوان بالحقد وبالرغبة فى الإنتقام . ويصاب الأب اندروس باليأس فيهرب من المدينة مما دفع بزوجته إلى البحث عنه فى الصحراء

أما سير فهى فلاحه صغيرة ، تتسم بسحر خاص . فقد هربت من الدير الذى أضطهدت فيه وتغوص فى الصحراء باحثة عن الله ؛ حدث هذا قبل الفتح العربى

لمصر بسنوات طويلة كما يقول تميس . وهو رجل يعرف تماما الطريق الذى يتجهن اليه هؤلاء النسوة ، فوق دروب الرمل التى لاتنتهى . إنه يذهب خلف أناستاسيا التى أحبها ويطاردها من أجل حب لا أمل منه

تلك إطلالة على بعض من عالم اندريه شديد التى نقدم لها واحدة من رواياتها الهامة رغم أنها روايتها الأولى . وهى تعكس بقدر الإمكان مدى أهمية ترجمة مثل هذه الروايات إلى اللغة الأم .. اللغة العربية

روايات الهلال

« المرأة مثل مجرى الماء العميق ،
لا يعرف المرء قدر ثورته »

الوزير بتاح حتب
« فى تعاليمه عن النساء
( مصر القديمة حوالى ٢٦٠٠ ق . م )

# الجزء الأول

سقطت أشعة شمس الأصيل فى هدوء على جدران المنزل المطلى بالبحر حيث يلتقى أحد فروع النيل بعيداً ، مع ظلال الغروب الباهتة ، خرجت رشيدة كعادتها تستنشق النسيم العليل حتى يحين موعد عودة أخيها بطرس . أسندت ظهرها إلى الجدار الأبيض فتناثرت ذرات الجير فوق شعرها الرمادى المجدول ، وعلقت بثوبها الضيق المقطب ؟

كان أخوها بطرس مديراً لمزرعة ، ثرى يقيم بالعاصمة ، ولا يأتى إليها إلا ثلاث مرات فى العام ، من أجل أن يراجع حساباته ويجمع دخل أرضه من الاموال . كان ذاك الثرى قد بنى لنفسه منزلا من الحجر ليكون مقراً له أثناء زياراته القليلة ، لانه ذلك المنزل المواجه للبيت المطلى بالجير المغلقة نوافذه على الدوام .

ظهر بطرس عند مدخل الحارة بقلنسوته الاسطوانية الحمراء (١) على رأسه الرابض فوق كتفيه ، وبعد أن ألقى إلى أخته تحية المساء فتح باب المنزل ذا المصراعين ودخل .

رجعت رشيدة الى الوراء ، وهى تنظر إليه حينما كان يرتقى السلم فى تثاقل . وحين غاب عند منعطف السلم عن ناظريها ، صارت لا تسمع غير وقع أقدامه وهى تنحت الدرج.

تكدس مخزون القطن فى الطابق الأرضى ، اعتادت أذنا رشيدة . على تمييز صرير مقبض باب المخزن كلما تحسسه بطرس كل مساء ليطمئن أن الباب لا يزال مغلقا ، أما المكاتب فكانت فى الطابق العلوى ، وكانت رشيدة قد اكتسبت كذلك القدرة على معرفة صوت المفتاح كلما اداره بطرس ليفتح الباب

---

(١) يبدوا أن الكاتبة أرادت بذلك « الطربوش» التركى

وهكذا كانت دائما فى معية أخيها ، تحس بما يدور فى خلده وتسير بأفكارها معه . وتعرفه حق المعرفة .

حينما يدخل حرة المكاتب التى يتساقط دهانها على اكتاف الموظفين ، ويتناثر على حللهم ، كان يفتح الأدراج ، ويقلب ما فيها مقطباً جبينه ، ثم ينزع ورقة من التقويم ، وفى النهاية يطمئن على الخزينة الفولاذية السوداء .

كانت رشيدة على وعى كامل بكل ما يدور فى المنزل ، تماماً كما لو كانت معه . كانت ترى ايضا صورة ضخمة لعملاق يرتدى قلنسوة حمراء ، مشذب الشارب ، يجلس فى كبرياء متكئاعلى عصا فى طرفها رمانة ذهبية ، يشبه كثيراً حفيده مالك الأرض الذى لا تزال إنفاسه تتردد بين جنباته .

وقليلا ما كان بطرس ينحنى أمام تلك الصورة المعلقة .

كان حينما يفرغ من تفقد المكاتب ، يهبط درجات السلم فتسمع رشيدة وقع خطاه الثقيلة وهو متجه نحو الطابق الثانى الذى يقيم حجراته الثلاث مع أخته وزوجته سامية الكسيحة ، رغم أنها فى ريعان الشباب .

لا شك أن سامية تقف وراء جميع المصائب ! أليست مشلولة الساقين ؟! ترى اى ذنب اخترقته حتى يريد الله لها هذا العقاب ؟ لم يسمع احد شيئا فى هذه الاشياء . فحينما كان بطرس يجتاز الدهليز ، كانت أخته ترجع ، وهى تتمتم : « كم كنت على حق لما طلعت اشتم الهوا »

سارت رشيدة بين المنزلين ، المنزل الباهت المبنى من الطوب اللبن الذى نزلت منه لتوها ، ومنزل الثرى الغائب بنوافذه الضخمة المغلقة وطلائه الحديث . سارت فى الجبارة تثير الغبار بحذائها القطيفة الأزرق وجوربها المرتق الذى تبرز أصابعها منه .

كانت الحارة توصل إلى أرض فضاء واسعة مسوّرة يدرس فيها الفلاحون قمحهم حيث كانت رشيدة تستنشق دائما الهواء قبل العشاء ، لكنها لم تذهب إلى هناك فى ذلك اليوم ، فقد ولدت إحدى أناث الماشية عجلا أثناء الليل ، لهذا آثرت الذهاب أولا إلى الحظيرة لتطمئن على الرضيع .

إنها فى حاجة إلى حذاء جديد من القطيفة ، وايضا الى جورب جديد ، لكن نساء الريف يتحاشين الكثير من المتاعب التى قد تجلبها الرغبة فى اقتناء ملابس جديدة . ومن المستحيل أن تفعل رشيدة مثلهن ، ولا بد أن تظل المسافة بينها وبينهم طويلة ، كيف لا ، وهى حريصة على ذلك كل الحرص .

لم تكن مهانه الكرامة كزوجة أخيها التى لم تكن سعيدة قط بشىء قبل أن يصبها الشلل مثل سعادتها بالسير فى شوارع القرية ومخالطة أهلها البسطاء ، وكانت كثيرا ما تتحدث عن ذلك فتثير حنق بطرس وغيظه .

حدث ذلك ذات يوم ، ساعة غروب الشمس ، حينما اتجهت رشيدة إلى الحظيرة وفوق رأسها منديل « بقوية » . كان الوقت قبل الغروب ، والشمس تحجب أشعتها عن الأرض . النّعجة تثغى والكلب ينبح والحمام يرفرف بجناحيه . كان غروباً ككل غروب ، ولم يكن بمقدور أحد أن ينبىء بما تخبئه الأقدار .

سوف تقول رشيدة ذلك . ستظل تكرره مع الأيام . فالناس قد تسوء نواياهم فى بعض الأحيان . ستعرف كيف تخرس ألسنة الأشرار . ستقول كل شىء ، فليس لديها ما تخفيه بين الجوانح .

هذا ما سوف تقوله : كانت تسير فى الحارة تجاه الحظيرة لترى العجل الرضيع ، ساعتها ألقى بطرس كعادته إليها بتحية المساء ، واجتاز عتبة المنزل ، وصعد السلم . ظلت من جانبها تسمع وقع أقدامه حتى اختنق صداها خلف باب الدهليز وبعدها – وكالعادة – لم تسمع شيئا .

لم تكن الحظيرة بعيدة

كانت بداخلها أكوام من الحطب العفش والخيش . بها ستارة من الخيش مشدودة بين عمودين لتفصل بين البهائم . كانت زينب قد خرجت منها قبل قليل ، خرجت وفوق كتفها طفل صغير ، وفي يدها إناء مملوء بالحليب .

حينماوقعت عيناها على رشيدة ركبها الغم . لكن ليسألوا غيرها من نساء القرية ، كامنة كل من فيها تعلم أنها تخرج للنزهة كل يوم فى تلك الساعة .

من بإمكانه أن يلومها على ذلك إن جو الحجرات فاسد ولا بد لها أن تخرج لتشم الهواء ، كما أنه ليس منوطاً بها أى من الاعمال . هل ذهبت ولو مرة واحدة إلى المدينة منذ ان وصلت قبل عامين ؟ لم تفكر فى ذلك قط على سبيل التسرية عن نفسها ، بل أنها مشغولة على الدوام برعايةأخيها ، أما أن تتنسم الهواء فذلك أمر مغاير تماما ، أمر يتعلق بالصحة ، والمنزل أنه ، وكرُ للعديد من الأمراض .

كانت الحظيرة مظلمة ، لكن رشيدة تحفظ كل ركن من أركانها ولم تكن تجد صعوبة فى التعرف على مكان العجل الرضيع الذى كانت أقدامه ضعيفة واهية وسمرة شعره داكنة ، والذى له لسان ضخم يروح حول خطمه ذهابا وجيئه ، حين دخلت أخذت تداعبه وتهمس فى أذنه تحك رأسه بغطاء رأسها الأسمر .

لقدغابت داخل الحظيرة ، كانت تعرف أسماء مابها من الحيوانات ، فهى التى أطلقت مسمارين معوجين صدئين وأدخلتهمافى الجدار وأخذت تطرق وتطرق لدرجة تصم الأذان حتى تمكنت وحدها أن تنهى الأمر .

ستقول كل شىء وستحكى كل ما فعلته من أجل بطرس بكل دقة منذ أن توارى فى منعطف السلم : الحظيرة بها قش رطب يلتصق بنعلها ، المداود شبه خالية من العلف رغم ان التبن يغطى سطح مياه الجداول

المنسابة ، أما عن أمال إبنة أخ أبو منصور الكلاف فلم ترجع بالقطيع من الحقول .

يالها من طفلة تافهة بحق ، والدليل على ذلك أنك تراها تنظر بشفقة إلى الكسيحة ، ثم تجهش بالبكاء فى كل مرة تصعد فيها بالجبن مرددة على الدوام أن « الست » طيبة ، وأنها لا تستحق ما أصابها ، طيبة غاية فى الطيبة .

سارت رشيدة فى طريقها إلى المنزل « تبرطم » ، خلعت نعليها عند عتبة الباب ثم دعكت الفردتين لتزيل منهما الأوساخ والطين ، وكانت الحقول تمتد بعيداً هناك فى الطرف الآخر من الحارة ، تمتد إلى حيث تغيب عن الأنظار . حقول منبسطة خضراء ذات حدود من الرمال الدقيقة السمراء . وخلف ساتر من الأشجار المتجاورة كان المنزلان متواجهين فى عزلة عن القرية ذات البيوت المتلاصقة الترابية اللون .

إنتعلت رشيدة حذاءها المهتك مرة ثانية ودخلت مشغولة بأخيها وساقان اسمران صلبان يظهران تحت غطاء رأسها الطويل .

ما الفائدة من وراء كل ذلك ؟ لم لا يتزوج أخوها واحدة اخرى غير الكسيحة ؟ عليها ألا تغفل الأنانية وحب الذات . وتذكرت شكاوى سامية وهى تصعد درجات السلم .

صعدت ببطء ثم توقفت أمام أبواب المخزن والمكاتب ، أخذت تفحص ، بعين فطنة يقظة ، مقابض الأبواب . هكذا كانت تقدم العون إلى أختها . كان كل شيء « تمام » فلم يفضل بطرس عن أن « يتمم على كل شيء » ..

آه لو لمحت شيئا ! آه لو راودها الشك فى شيء ! ساعتها لن تكف عن مراجعة فحص الأبواب وتأمل المقابض . وستعدو فوق السلم عدوا لتقيم الدنيا ولا تقعدها بين أهل القرية !

انه يوم ككل الأيام ، ولم يكن بوسع أحد أن تنبأ بشيء . لم يكن درابزين السلم بأزهاره الباهتة متماسكا ، اذن لا بد من الحذر فى التعامل معه ، وكانت الأقدام قد بردت درجاته اما المنور فقد فقد زجاجه .

ظل باب الطابق الثانى مفتوحاً فقد كان بطرس على يقين من أن أخته لن تتأخر . ألقى عصاه مثلما يفعل كل مساء ، لكن المشجب ظل خاليا . انه لا يخلع قلنسوته الا عندما يجلس إلى المائدة الكائنة فى الدهليز الذى تفصله عن حجرة الجلوس ستارة من القطيفة ، ستارة ، على الدوام ، مبسوطة لأن الزوجة الكسيحة الجالسة فى الحجرة تقطب الجبين فى ضوء الشمس .

ورغم ذلك ، لم تكن رشيدة تغادر المنزل قبل المساء وفاءً واخلاصاً لأخيها .

وكانت الفلاحات تأتين بالبيض واللبن واللحم والخضار ، كانت تحت ملابسهن بالجدران وفتحات أنوفهم تتسع ، أعينهن تتلفت يمنة ويسرة كالجرذان المتأهبة للهرب فى الحجوز . وتجلجل ضحكاتهن مدوية بعد مغادرة المنزل . كانت بالامكان أن تسمع منهن مثل هذه الكلمات : « فيه كراسة جديدة فى بيت الناظر ! هيا كلوا عنده كوسة محشية ! »

وكانت رشيدة تشرع فى العمل فور نزولهم ، كانت تعمل بنفسها كل شىء بينما المريضة ساكنة طوال إقامتها فى المنزل .

لم يكن بطرس يذهب إلى الحقول ولاإلى المكاتب عصر الجمعة مع ان ذلك اليوم لا يعنى شيئا بالنسبة له فى مجال العبادة ، لكنه كان يساير أعراف القرية . كان يتحدث عن نفسه قائلا « أنا مؤمن » ، وكثيرا ما كان يفخر بأن أخته رشيدة لم تغفل يوما عن حضور قداس الأحد أو تتأخر عنه . وكان يقول أحيانا : « مشاغلى كتير بتمنعنى ساعات عن القداس ، ولكن أنا متدين وربنا هيسامحنى »

تظل أخته طوال الأسبوع فى انتظار يوم الجمعة ، فتطبخ الطعام فى قدرين من النحاس ، ومع أول صيحة يطلقها بطرس تهرول قبيل الظهر - وبعدها يتجهان معاً إلى شاطىء الترعة .

تضع القدر فوق القدر ثم تلفهما بفوطة بيضاء وتربط اطرافها الأربعة وبعدها تضع يدها تحت الرباط . تسرع لاهثة ، تبدل ذراعا بزراع ، تسير وراء بطرس الذى يحرك عصاه التى لا تفارقه ، يحركها فى دوائر تتوالى مع وقع خطاه . وأحيانا يرفع قلنسوته ثم يجفف جبينه بمنديل نُسلت اطرافه .

كم كانا متطابقين ! يسيران على درب واحد ، الطباع هى الطباع دون أدنى اختلاف آكانا يتناولان الغذاء تحت أشجار الصفصاف التى تتدلى أعضاؤها فى الماء ليتّقيا قيظ الشمس . انهما كزوج من الطيور فى قفص من الخضرة اليانعة .

وكان بطرس فى تلك الأثناء يتحدث إلى رشيدة عن عادات القرية ، وكانت تستمع إليه فى انتباه ، تؤيده فيما يقول باماءات رأسها . وكان هو الآخر بيدى اهتماما بما يقول قائلا لها : « إنت طيبة ! » ، «إنت طاهرة » ، « أنا حظى من السماء عشان خليتك تيجى معايا ! » « مش عارف كنت ح اعمل إيه لو مجتيش معايا ! »

كان هو الصورة ، وكانت هى نسخة منه ! لم يعرف المرض ولم يعرفهما المرض قط ! ولا قيمة للكرسى ذى العجلات بالنسبة لهما . انهما فى غنى عنه تماما وفى صحة وعافية !

آه لو كانت رشيدة تعرف النبوءة ! آه لو عرفتها قبل أن تقع ! لو عرفت ماكان سيجرى لما تركت المريضة ! ولدفعت ثمن الكرسى من نقودها الخاصة ! ولدفعته أمامها على الدوام دون أن تغفل عنه ولو لحظة ، ولسحبته وراءها إلى حيث تتجه فى المطبخ أو فى الشرفة ، بل ولطلبت من يُعينها على حمله حين تصعد السلم وسامية تجلس عليه وذلك

بعد ان تكون قد مكثت وقتا ترفه فيه عن نفسها فى الحارة أو فى الجرن أو فى الحظيرة وعلى شاطى الترعة وفى الطرقات . كانت ستلزم نفسها بسحب الكرسى فى كل مكان .

فى ذلك اليوم ، ترددت رشيدة قبل أن تدخل حجرة زوجة أخيها ودفعت باب المطبخ : الخضار يغلى فوق « وابور » الجاز ، ترى هل نضج ؟ كان « الوابور » يزأر ونار زرقاء قوية تنبعث منه . دفعت غطاء القدر وغمست أسنان الشوكة فى الفول الذى قد نضج بعد كان كل شىء فى الدهليز مكانه ، الكرسى والابريق النحاس والمشجب والمرآة والبساط القديم الذى لم تسأم سامية طلب تغييره وبإلحاح . كانت تريد بساطا آخر من القطن لأن جسدها يقشعر من ملمس البساط الموجود بالحجرة .

هزت رشيدة كتفيها قائلة : « دى طلبات ناس مهاويس ! » ثم أمسكت بالبساط

وأخذت تتحسس وبره وتدقق النظرفيه وسط الضوء الخافت .

خفق نعلها القطيفة بصوت مكتوم حتى وصل إلى الأبواب ، فتحتها رشيدة فى عصبية وخرجت إلى الشرفة صائحة : « الحقونى ! الحقونى! ... تعالوا الحقونى . ! » ، وانحنت فوق السور وكأنها ستلقى بنفسها ، كان ثوبها يرتفع فيكشف عن ساقين نحيفين ، وجورب مرتق بطريقة تفتقر إلى الذوق . كانت تهز رأسها و « البنس » الكبيرة الصدئة تتساقط من ضفائرها ، وصوت صرخاتها يتحطم فوق الحائط المواجه .

كان يمكن أن تظن أن صرخاتها ستهوى بها الى سطح الأرض لم تكن ترى شيئا على الاطلاق . كانت تدير ظهرها إلى حجرة المرأة الكسيحة دون أن تكف عن الصراخ وتقول : « قتلوه ! قتلوه ! قتلوه ! الحقونى ! قتلوا الناظر » كانت بعض الأسماء تمزق ذاكرتها فتقوم

بترديدهــــا بدون وعى هنا وهناك : « ياحســـن ! ياخالــــد ! يا أبو منصور ! ... الحقونى ! قتلوا أخويا ! »

لم تكن ترغب فى النظر وراءها ! لكن « سامية » كانت تدقق النظر فيها وتحملق . كانت نظراتها تخرق ظهرها ! ظلت لا تود أن تنظر خلفها حتى يصل جميع أهل القرية ! ليأتوا جميعا وليتجمعوا فى الحجرة ! صرخاتها : « يابطرس ! يافريد يافاطمة ! إنتو فين ! قتلوا الناظر ! أخويا مات ! إلحقونى »

أخذ صوتها يتردد بين جنبات الحارة المغلقة ، لم يكن يتجاوزها إلى الحقول والقرية الجاثمة تحت خيمة من الغبار . وحين كان يتكسر فوق الجدران ، كانت شظاياه تعلوا ! وتعلوا لتقطع المسافات . كان يغزو القرية ويتناثر فى الحقول : « الحقونى ! الحقونى ١ كلكم !...»

كان سور الشرفة يترك أثره فى راحتيها وما لبث شعرها أن تطاير فوق رقبتها ، لم تكن تريد أن تلتفت وراءها حتى لا ترى بطرس غارقاً فى دمائه وحتى لا تلتقى نظراتها بنظرات المرأة الجالسة فى سكون . كانت تهدف إلى نسيان كل شىء حتى يأتى اهل القرية على عجل وحتى لا تكون – هى – غير الصراخ : « الحقونى ! تعالوا خذوا بتارنا ! »

٭٭٭

ظلت المرأة صامتة منكمشة فى قاع الكرسى ، والنوافذ مفتوحة تبعث الضوء فى ارجاء الحجرة . لم تعتد من قبل على الضوء الشديد فى الحجرة . كان بريق عينيها نفاذاً والشال الباهت يُغطى ساقيها ، بينما رشيدة لا تكف عن الصراخ الذى أخذ يتتابع كالموجات المتلاطمة .

كانت يدا سامية البيضاء تشعان الضوء على ذراعى الكرسى ، وكان كوعاها مرتفعين قليلا كما لو كانت تتأهب لمغادرة المنزل ، وشعرها

يعكس أضواء غريبة يبعثها منديلها البنفسجى اللون . وكانت كذلك تلبس قميصا من القطن يتدلى منه دبوس به تعويذة « خمسة وخميسة » وحول رقبتها عقد من الكهرمان .

وكان رأس القتيل متكئا إلى قدميها اللتين لم تشعرا بشيء ، بينما لا تزال رشيدة تصيح وهى منحنية الظهر إلى الأمام ، وساقاها النحيفتان ظاهران فى الجورب المرتق ترى لماذا ظلت على ذاك الحال وهى توشك أن تسقط من الدور الثالث ؟

ذات يوما قتل بطرس غراباً بعيار نارى أطلقه من سلاحه . كان سعيدا والغراب يهوى من اعلى الشجرة حالك السواد مضرجا بدمائه . ، كانت الروح لاتزال بين أضلعه . ولو كانت رشيدة قد هوت فى الحارة لكانت سوداء مثله والدماء تنبجس فوق ثيابها وعلى شعرها المنكوش

كل ذلك كان يتردد على ألسنة الناس وهم وقوف على رصيف المحطة ينتظرون وصول القطار ، كانوا يتحدثون عن ذلك ، وعن حكايات آخرى .

وظلت « رشيدة » تصرخ إلى أن بُح صوتها دون أن تلتفت وراءها مرة ، ولو كان بطرس حيا دافئا لذهب إلى جوار أخته فى شرفة المنزل دون أن يتردد لحظة ، ويلمس كتفها كتفه ، وحيث كانت هيئتهما واحدة تقريبا فيستندان إلى دربزين الشرفة ويصرخان نفس الصرخات فى نفس واحد .

ربما كان سيطلب من رشيدة الكف عن النواح ، ثم يتجه بعد ذلك إلى زوجته سامية ويخطو نحوها خطوات وينظر إلى الكرسى الذى تجلس عليه وفوق رأسها المنديل البنفسجى .

لو لم يكن قد سكن وخمدت جذوة الحرارة فى عروقه لاتجه نحوها لمن ينتظر وليداً لكن يأتيه سفاحا ! وساعتها كان سيعود إلى الشرفة من جديد ليجلس بجوار أخته يشاركها العويل والصراخ .

هذا ماكان سيقدم عليه لو كان هناك والدماء تسرى فى عروقه

وقلنسوته الحمراء فوق رأسه ، لكنها الآن ملقاة وسط الحجرة تعكس شعاع الشمس التى تميل إلى الغروب .

كان سيقول فى استنكار : « شغل إيه اللى عندها ؟ هى تعبانة فى حاجة ؟ كل حاجة موجودة عندها . اختى هى اللى مطحونة وبتشقى .دى مش محرومة من حاجه ! كل حاجه عندها ! »

تلك كلماته التى كان سيتفوه بها لو تمكن من النهوض والوقوف من جديد على قدميه . كان سيقول : « دى عندها كل حاجة : . بيت ، وراجل ، وخير كتير ! إيه اللى أى ست عايزاه اكتر من كده ؟ انا كنت متأكد إنها شؤم ! أعمل آيه بس ؟ الدين بتاعنا بيحرم علىّ أطلقها ، مقدرشى أعمل حاجه ! إحذرها واعملوا فيها اللى إنتو عايزينه ! »

أضحى من المتوقع أن تطلق المرأة الرصاص على نفسها وهى جالسة على الكرسى الذى يعلو ظهره قامتها . قد تنتحر كما قتلت نفسها بالأمس وقتلت نفسها اليوم !

كان شعاع الشمس يتسلل من الأركان والزوايا فتعلق به ذرات الغبار الذى يجثم فوق الورود الصناعية المكدسة فى الزهرية ، ذلك الورد المستمر الجامد بلا مياه تعبث فيه الطراوة والحياة ، ورد له حفيف كحفيف الأوراق الجافة .

وكرسيًان باتا لا يتوقعان زيادة من أحد على الاطلاق ، كرسيًان مكسوان بالمشمع الأخضر وبينهما قلنسوته الحمراء وسط هالة من ضوء الشمس .

وقفت رشيدة متسمرة فى الشرفة ، تملأ الأرجاء بصيحاتها التى فقدت تأثيرها على الأسماع . المرآة تعكس كل شىء على حقيقته الإجرامية ، ولم تكن المرآة غير الحقيقه والجريمة ، لم تكن ترى بقع الماء على صدر القتيل .

❂❂❂

مع بزوغ ضوء الفجر ، بات يقينا في صدرها أن بطرس سيموت على ذاك النحو وفي نفس المكان ، ساعتها أقلعت عن التفكير في الأمر ، ومر اليوم مثلما تمر جميع الأيام ، مر بدقائقه الحزينة النكدة ، مر بين ذهاب رشيدة ومجيئها ، فما أن تغادر ركنا من اركان الحجرة إلا وتجدها في الركن الآخر دون أن تكف عن التمتمة . ومن كانت تغادرها إلى الحجرة المجاورة ، كان صوتها يتسرب من تحت الباب . ولما كان النوم يخيم على الأشياء في الضوء الخافت ، فقد سنحت لها الفرصة أن تغمض عينيها لتنس ما حدث لبضع ثوان .

وحانت الساعة السادسة ، ساعة خروج رشيدة من المنزل لتشم النسيم . وبعد خروجها صعد بطرس . كانت المرأة تنتظره في ضوء الحجرة الخافت حيث النوافذ موصدة . والأبواب كذلك . تسمرت في الظلام تترصد الخطى الصاعدة .

سمعته يجتاز العتبة ، نهضت قليلا وأرهفت السمع ، الأشياء مبهمة في ذاك الضوء الباهت . لم تشغل بالها إلا بوقع خطاه الوئيدة كانها تعد الواحدة بعد الأخرى ، تمد رقبتها إلى الأمام ، تتخيل أعماله الحذرة أمام المخزن والمكاتب ، يتماثل أمام فاطريها وهو يدير المفتاح ، عرفته من طريقته في السير على درجة السلم الأخيرة قبل أن يدخل الدهليز ، لقد اعتادت على صوت عصاه عندما يرتطم بقاع الابريق النحاسي .

كان بطرس يصل في موعده على الدوام .

أحست بنسمة هواء تلفح رقبتها فأدركت أنه جذب الستارة الوبرية . أخذ يخطو في الحجرة ، سيكون أمامها حالا ، سيحنو عليها ليقبلها : سوف ينحني ليقبلها كما يفعل كل مساء وكما فعل بالأمس ، مثلما قبلها في العام الماضي ، وكما يفعل منذ خمسة عشر عاماً .

لكنَّ هذه المرة ، لا يمكن تحملها !

حين أجلسوها على الكرسى مع بزوغ الفجر ، كان مسدس بطرس تحت ملابسها ، مسدسه الذى يحمله فى جيب سترته الأيمن . وكان دائما يردد هذه الكلمات : « لازم الواحد يشيل سلاح . الواحد ما يعرفشى ! ...»

لكنه كان ينساه أحياناً بين القمصان فى الصوان .

حين رأته لأول مرة انتابتها رعشة خوف . كانت تخشى ما قد يجلبه من أخطار ثم ما لبثت أن فتحت الدولاب ذات يوم وهو يتحدث مع أخته فى الشرفة فتحته وأخرجت المسدس ثم دستّهُ فى ثوبها . بعد ذلك أخرجته وتأملته ، أخذت تقلبه بين كفيها حتى ألفت حمله وملمسه . ثم تحسست الزناد بإصبعها ووضعته فى مكانه .

كان بطرس وأخته جالسين فى الشرفة يسطردان فى « الحديث بصوت منخفض حين سقط المسدس بثقله بين القمصان ، وبعدها لم تشغل المرأة بالها بشىء .

لم يكن ثائرا ولا منفعلا فى تلك الليلة ، ولماذا فى ذلك اليوم بالذات ؟ لانها عقدت العزم على الخلاص منه فى الصباح . وأصبحت متأكدة أنها سوف تستخدم السلاح وأن بطرس سيرخى شفتية ويرتمى على الأرض . ربما تبقى قلنسوته الحمراء فوق رأسه وقد تميل إلى الوراء فيظهر جبينه وعليه حبات العرق المتلألئة . سوف تتلاقى شفتاه الضخمتان ويسيل الرضاب على جانبى فمه ويهوى . وقد لاترى غير شفتيه وقلنسوته فلا تتحمل المشهد وتنهار هى الأخرى .

ولم ينهض على الاطلاق .

انطلقت الرصاصة إلى صدره ، كان صوتها مختنقا ، فقد الرجل اتزانه فى الحال ومد زراعيه بحثا عن شىء يستند إليه واخيراً هوى على وجهه فطارت قلنسوته وتدحرجت مثل ماسورة فارغة إلى ان توقفت وسط الحجرة .

أطلقت سامية الرصاصة الثانية .

كان الرجل كالمثل يغمغم بكلمات غير مفهومة ، ترنح وارتمى رافعا يديه نحو جبينه ثم هوى على ركبتيه ، وأرخت المرأة آنذاك أصبعها فتخلى عن الزناد ، بعدها سقط المسدس على الأرض .

أدارت ناظريها حتى تصير بعيدة ! وربما كانت تتمنى أن تهجرجسدها لما أقدم على آرتكابه ، وربما أرادت أن تغادر جسدها لتفكر فى شىء آخر . لم يسبق لها ان قامت بمثل هذا العمل من قبل لهذا كانت تتطلع إلى أن تنأى بنفسها عنه . وكانت فى تلك الأونة - فقط - تستطيع أن تتأمله .

ثقلت رأس الرجل فهوت على صدره الصلب ظلت الأنفاس تتردد بين أضلعه مدة ، ولما تمزق الخيط الذى يربط أعضاء جسده هوى على ساقى زوجته .

❂❂❂

لم تكن رأس القتيل ثقيله !

وأخذت المرأة تلتقط أنفاساً عميقه . كان ما أقدمت عليه قد إنفصل عنها ولم يعد يشغل بالها . وأصبح عليها أن تتكىء على ذراعى الكرسى وتنحنى لترى رأس زوجها .

ترى ماالذى أوحاه إليها المشهد آنذاك ؟ ربما لم يذكرها بشىء . لكنها صارت آنذاك تحس بالقدرة على النهوض . كانت تشعر بالحياة تدب فى ساقيها وأنهما لن يخذلانها ، لكن إلى اى مكان كان يمكن أن يقودانها ؟

وحتى ذلك الوقت المتأخر من الليل لم يكن قد حدث أى ردفعل لما وقع . ما لبثت أن انكمشت فى الكرسى وغاصت فيه حتى ابتعدت عن القتيل إلى أقصى ما استطاعت .

لقد زال عنها هم كبير كان يجثم فوق صدرها ، زال وأخذ معه حجرتها والزمان .

ولم تكن تلك قصتها هى .

كان المنزل لا يزال يردد صيحات رشيدة بعد أن أعتاد عليها . وسوف يسمعها الجميع وهم يجتازون عتبة الباب . صعدت رشيدة السلم بسرعة رغم أنها تجاوزت السنين من عمرها وهى التى كثيراً ماكانت تتاخر بصلابة عودها قائلة : إن الشيب لا يصيب المرأة طالما لم يعكر صفوها أحد .

ربما كانت على استعداد أن تصرع بيديها ذات العروق الزرقاء النافرة كل الأيادى كما كانت تفعل كل مساء . ربما كانت ستتفحص الأبواب لتطمئن عليها . انها مثل أخيها حذرة ، تحتفظ من المفاتيح بنسخه . ولسوف تصعد السلم دون أن تستند إلى ركيزته المتهاوية. وسوف تفتح الدهليز حتى ولو كان مغلقا .

كانت رشيدة تعتز بالستارة القطيفة متمسكة بها ، قائلة إن وبرها « علامة على العز ! » . وكانت تدعم رأيها بأن تقول : إن ستائر منزل صاحب العزبه وطقم حجرة جلوسه من الأرائك والمقاعد ، كلها من القطيفة .

كنت أسمعها متجهة إلى المطبخ رغم زئير « وابور » الجاز الذى كان يخنق وقع أقدامها أسمعها تقول : « أنا تعبان قوى » محدش بيساعدنى ، أخدم واحدة زى بنتى ، أنا تعبت وكبرت لكن معلهش ، انا بعمل كده عشان خاطر بطرس . ربنا يخليه ! كان حاله هيبقى إيه من غيرى ؟ » .

كانت تلف وتدور حوله عند ما يعود فى المساء ، بعدها يتناولان العشا ثم يتسامران ويتهامسان . كانا يقولان : « إحنا صوتنا واطى عشان متتعبيشى، استريحى ! استريحى ! » .

بعد لحظات ، سوف تزيح الستارة وتسرع إلى الحجرة ، سوف تعبرها عدوا وتفتح النوافذ بشدة من أجل أن يدخل النور . سوف تميل على درابزين السلم وتصيح بأعلى صوتها ! ! كان ذلك طبعا . فقاعات فوق سطح الماء .

۞۞۞

أخذت تصيح ولا مجيب ! فالساعة ساعة انشغال النسوة بالأطفال في المنازل . كل أم تجمع صغارها حولها ولا تصغى إلا لهم ولا تنصت إلا اليهم . كثيرا ماتصيح الأم لتحس بأن كلماتها فى البيت مسموعة حتى يصل الرجل من الحقل :

- « تعالى ياحمد !! أبوك جاى ! »

- « سعيد ! ياسعيد ! هات شوية ميّه بسرعة ! »

- طاهية ! ياطاهية ! ياطاهية ! »

- « أمين ياأمين ! بطَّل لعب بالطوب وتعالى ، إنت عارف إن أبوك عاوز يجى يلاقيك موجود »

- طاهية ! ياطاهية ! ملعون روحك ! السنة الجاية هتشوفى ، هبعتك الغيط ! »

وظلت رشيدة تنوح حتى صارت صيحاتها مجرد أنفاس ، ظلت متكئة إلى دربزين السلم حتى قدم الليل . كانت وحدها مع سامية لا ترفع بصرها عنها حتى أمست فى ناظريها كالشبح .

كان الرجال عائدين إلى القرية ساعة الغروب ، يتتابعون الواحد وراء الآخر ، على وجهوهم تعب أسكتهم عن الكلام . وفى الطريق سقطت فوقهم إحدى صرخات رشيدة كالحجر . ساعتها وقف من كان فى

المقدمة « اسمعوا ياجماعة فيه حد بيقول الحقونى ! » خالد : « دى خناقة تانية بين الحريم »

كان قد إعتاد على مثل ذلك بين زوجتيه . حسين « فيه حاجه ياجماعة ! »

بدأوا ينصتون وينسون التعب . قال واحد منهم : « تعالى نشوف » .

رد حسين قائلا : « إيوه فيه حاجة » وجرى ، وجرى وراءه الآخرون . وأخذ كل من فى الحقول يهرولون .

وتركت النسوة كل شىء . حينما عرفن أن هناك من يستغيث . وقالت نفيسة ، ضاربة الرمل العجوز : « أنا كنت عارفه كده ... كنت عارفه إن النهارده مش هيعدى على خير ! »

تركت النساء الصغار فى رعاية نفيسة وأخذ الرجال يهرولون فى الطرقات من كل صوب ، من المقابر وحقول القطن ، من الحدائق والمساجد ...

كانت رشيدة تراهم يهرعون إليها لكنها مع ذلك ظلت متكئة إلى دربزين السلم لا تدرى ماتقول . وتجمع أهل القرية بين المنزلين ، الحارة ضيقة وثياب الناس تحف بالجدران . كان الغضب ينبعث من اعماق الناس دون أن يدروا سببا له ، تكتلوا وملأت صيحاتهم الأسماع ، وصارت صرخاتهم كالأمواج تؤرجح الحجرة بعنف .

❂❂❂

تدفق الماضى وتتابعت أحداثه بسرعة ، تدفق بكل صورة ليغطى على كل شىء ، كانت الصيحات تعلق بالجدران وكأنها حلقات شبكة معدنية أما أمال فتركت قطيع الغنم ولحقت بالناس . صغيرة بالنسبة لسنها . هرولت بردائها الأصفر الذى كانت سامية قد حاكته لها . أخذت تتساءل فى قلق : « إيه الهيصة دى ؟ إيه اللى حصل للست سامية ؟ » .أخذت

تجـرى مـسرعة وهى تجدف بكوعيهـا ، كـانت تسـعى إلى أن تصـعد قبل الجميع .

أما أم الخير العجوز ، فكانت فى المؤخرة ، أخذت تقول : فيه حاجة حصلت للست سامية ! » ، واستبدت بها الرغبة فى الصعود هى الأخرى قلقاً عليها دون أن تعرف السبب .

وهناك بعيدا كان الأعمى يتعذب ! كان مستندا إلى شجرة يسائل نفسه ! : « إيه اللى حصل للست سامية ؟ ياترى ليه الست رشيدة بتزعق ومحدش فاهم كلامها ؟ » .

إندفع الكل داخل المنزل ورشيدة منحنية إلى الأمام تنظر إلى الجميع وهم يتـدافعـون ، كل يحـاول أن يصـعـد قـبل الأخـر . لن تـهدأ قـبل أن يدخلوا جميعا حجرة القتيل . أخذت تردد فى هسترية : « ياريتنى كنت عارفه ...! لو كنت إعرف كده كنت مـخرجتش من الدار أتمشى ولا سألت عن العجل ولا عن الأبواب ! »

كان السلم ضيقاً ، الرجال والنساء يتدافعون ويصطدمون ... وأمال تضع يدها على صدرها وتقول : « ياريت مايكونش حصل حاجة للست سامية ! » ظلت هذه العبارة تتردد على شفتها دون أن تكف عن التجديف بكوعيها . كانت تتمنى أن تسبق الآخرين لتنقذ الست سامية . تريد إلا يصيبها مكروه . أى شىء ، كان ياترى ، ذلك المكروه ؟

وهكذا أمـسى اللغط واضحـاً وحـاداً ، وربمـا يغـفل الناس عن عـدم تماسك الدرابزين فيـهوون فى بئر السلم بل وربما ينهـار السلم بأكمله ، وقـد لا تقـوى رشـيـدة على مـواصلة الصـراخ ليـستطيع أهـل القـرية أن يناموا الليل .

لكنهم ما داموا قد دخلوا الحجرة بالفعل فسيجعلون الماضى حاجزا بينها وبينهم . سوف يستحضرونه ويجعلونه يمر أمام أعينهم مثلما تمر المناظر عبر زجاج القطارات وهى تنهب الأرض . سيكون من الضرورى استعادة ما مضى للوقوف وراءه ليظل الماضى بعيدا فجأة وبالمرة .

« كنت طفلة ذلت يوم ، لكنى لا أذكـر أين . ، لا أذكـر وجـه أمى ولا مكانه . لا أدرى شيئا . إننى فى سرداب مظلم لا أرى شيئاً ... لكنى سوف أتذكر ...نعم أتذكر ، ولا زلت أذكر بعض الأمسيات .... »

( ٢ )

## أمسيات يوم الأحد من كل أسبوع !

كانت السيارة تسير فى شوارع المدينة والزجاج مرفوعا . كان غطاء محركها ضيقاً مدهوناً « بالدوكو » وإطارها الخشبى ومشمع مقاعدها فى حالة متواضعة . تترك وراءها المنزل والحديقة والوجوه التى أعاشرها وأراها على الدوام وتسيربين الحوانيت والمرايا والأرصفة حتى تصل إلى ميدان محطة القطار الرمادية التى تتوسطها ساعة غارقة فى حساب الدقائق ، تلك الدقائق التى تمر بلا حساب .

كان علىٌّ يقول إن القطارات تسافر من المحطة إلى كل البلاد ، وربما إلى بلاد ليست بها مدارس . ورغم ذلك لم أركب القطار قط . ربما يكون القطار مخصصاً للكبار وحدهم ! .

كان يسرع بالسيارة وهو غارق فى سترته الزرقاء الزاهية فى زرقة ماء البحر ، وكثيرا ما كان يضطر أن يدور دورة كاملة ، وان ينظر من زجاج العربة الخلفى حتى يرى المسافرين وهم يتدافعون على رصيف المحطة والحمالتين فى ثيابهم الزرقاء الطويلة وهم يحملون فوق أكتافهم حقائب المسافرين .

كانت العجلات والسيارات وعربات الحنطور تتزاحم عند مداخل المحطة وفى الميدان . وعلىٌّ يسرع بالسيارة ، هكذا كنت أجد صعوبةفى قرأة الإعلانات وأسماء الشوارع ، لهذا كنت أخمن اسماءها حتى اهتدى إلى حانوت تاجر الحبوب والعطارة الذى وقعت امامه الحادثة منذ عام على وجه التقريب .

كان على قد طلع فوق الرصيف بعد أن اصطدم بأوتوبيس ، آنذاك صاح قائلا : « المفروض ولاد الحرام دول يدخلوا السجن ! »

تقدم العطار إلى عتبة دكانه . كانت شفتاه ترتعشان من الغضب لكن بدانته وقلنسوته المنشاة وفوطيته التى فوق صدره ، كل ذلك تضفى عليه طلعة بهية . خرج الرجل من محله وساعدنى فى النزول من العربة قائلا : « حصل خير ! جت سليمة ! » ثم ادخلنى فى محله وأجلسنى على كرسى من الخيرزان . لا أنس أبدا الماء واليانسون اللذين قدمهما لى فى كوبين من الزجاج الذى يشع أضواء زرقاء . ولم أتردد فى تناول الشراب بينما كان ينظر إلىّ فى رقة واشفاق .

كان علىٌ يفحص إطارات السيارة ومحركها ، وأنطون أخى الذى يلازمنى مساء الأحد كل اسبوع فى العودة إلى المدرسة يتوعد المتجمهرين تارة ويحدثهم باللين تارة أخرى .

وقف العطار يتأملنى طويلا ، يتخيل الموقف لو كان الحادث قد وقع فى ثانية . أخذ يطقطق بلسانه ويضرب كفا بكف ثم رفع يديه إلى السماء كما لو كنت قد فارقت الحياة بالفعل . وأخيرا قال : « جت سليمة ! حصل خير ! »

وبعد أن تأهبت السيارة للمسير ، أبى التاجر أن يأخذ ثمنا لما قدمه وأخذ يهز رأسه مصراً على الرفض وكرر نصائحه على مسامعنا كى نحرص أثناء السير

لهذا كنت أحرص على رؤيته كلما مررنا أمام دكانه لألقى عليه التحية . ولم أستطع أن أنسى معروفة الذى أسداه إلينا كما لم يغب عن ذاكرتى وجهه المريح الفطن . لكن عليًا كان دائما يسرع فى المسير حريصا على ان اكون فى موعدى كماكنت أحب . وكانت المدرسة تفتح أبوابها تمام السابعة .

هذه هى أمسيات الآحاد !

خصوصا عندما كان ليل الشتاء يداهم ضوء النهار . كانت صورة المدينة تنعكس باهته على سطح السيارة اللامع . كان أخى أنطون يرافقنى فى الذهاب من باب الواجب .

كان فى السادسة عشرة من عمره ، ورغم ذلك كان اخوتى يعتمدون عليه . يجلس بجوارى فى الكرسى الخلفى ، يقلب الجرائد يخرج منها قصاصات بها أسعار الأسهم فى بورصة الأوراق المالية ، يدقق النظر فيها بنظارته الذهبية المستديرة ، يمتدح نفسه فى فخر الرجال مضيفاً بذلك إلى عمره بعض السنين .

كان الجو بارداً وأخى يجلس بجوارى .

السيارة مسرعة ، أتأمل منازل المدينة التى تتابع بسرعة تسبب الدوار ، شرفات المنازل مكتظة بالناس ، وجماعات أخرى ترتدى الثياب الزاهية تنظر من أعلى الجدران .

الأرصفة كأنها عساكر ترتدى الزى الرمادى ، تقف عن اليمين وعن الشمال لست أدرى إلى أين ، إلى أن تأتى إلى إحدى الحارات لتقطع ذاك الصف فجأة .

توقف علىٍّ فجأة أمام مدخل إحدى الحارات حيث توجد المدرسة الداخلية .

ينعكس ضوء المصباح الأرضى الوحيد على خدٍّ علىٍّ الأسمر الأشبح . يستيقظ أخى من غفوته فجأة ويقبلنى ، ورغم أنه يكبرنى بعامين كان لا يكف عن تقديم النصح والمواعظ إلى قبل أن يدس قرطاساً من الحلوى فى يدى ، قرطاس يحتفظ به دائما إلى آخر لحظة .

وكان أكل الفول السودانى ممنوعاً لكنه كان ينسى على الدوام ذلك : لهذا كان علىٍّ أن أبحث عن حيلة لأتخلص من القشور فى الحال . وكان علىٍّ يبتسم فتظهر أسنانه البيضاء ، كانت نظراته تقول : « هنيجى ناخدك الأحد الجاى متخافيش ! »

كانت بوابة المدرسة الحديدية شاهقه ، لم اكن ، أرى غيرها . كنت أدير الأكرة بكوعي وادفع الباب بكتفى : ذراعى الأيسر يحمل الحقيبه بينما تمسك يدى اليمنى بقرطاس الملبس وينفتح الباب بصعوبة ثم ينغلق ورائى بسرعة دون جهد محدثا صوتا يرن فى الآذان .

أين أخى الآن ؟ بل أين أنا ؟ أين علىّ بخده اللامع ؟ وأين السيارة ؟ أتحاشى النظر إلى واجهة المدرسة الكئيبة مثل ملابس الأرامل البالية ثم أجرى فى الحديقة ، أدهس الحصى تحت أقدامى فيحدث أصواتا مثل أصوات البلاج .

كنت أتمنى أن أعود علي عقبى وأجرى أن افتح البوابة ثانية لأعود إلى الشارع هربا ، لكن إلى أين ؟ لا أدرى !

كانت البوابة تنفتح وتنغلق ، الأقدام تسرع الخطى من حولى بينما أجرٌ - أنا - قدمىٌ جرا ! أقف عند كل درجة ، أستدير وأقف علي أطراف حذائى لألقى نظرة على المدينة ...

كان كتفاى يخنقانى ، جامدان صامدان . أخيرا ها أنا أجتاز العتبة رغما عنى وأدخل . بينما تستحثنى الأخت الجالسة بجانب الباب لأسرع ، أدخل الممر الزاخر بتمتمات مختنقة على الدوام ، تمتمات يختنقها السكون .

تراودنى فكرة الإرتماء على الأرض لأرقد دون حراك ، ساعتها كانت الأمور ستنتهى ، لكنى اعتدت السير إلى حجرة الملابس . وهكذا كان يحكم على قبعتى ومعطفى أن يظلا أسيرين تحت وطأة شارة حمراء طوال أسبوع كامل شارة كتب عليها إسمى بطريقة فنية جميلة .

كان كل من وزنى وطولى يسير وفق مقاييس الرشاقة وعادة ما كانت ظريفة تمضى يومها فى حياكة حاشية تنورتى وفكها من جديد ثم خياطتها مرة أخرى . ولما كان بعدها ضعيفا فقد كان علىّ أن أدخل لها

الخيط فى عين الإبرة كانت تجلسنى على ركبتى لتطمئن إلى أن التنورة لا تلمس الأرض .

كانت التنورة منشأة تلمس بنسيجها الصوفى ساقى« ، وكلن جوربى الأسمر يترك بصماته على بشرتى ، وفى الشتاء كنت ارتدى عديداً من الملابس الداخلية تحت البلوزة التى كان يضيق كمها على معصمى ويحقن اصابعى الطويلة التى وسخها الحبر ، أما دواليب الحائط فكانت تحدث صريراً عند غلقها .

هناك من يقرأ الأسماء

ثمانية وثلاثون ...خمسة وأربعون ... مائه وعشرون . « أفندم » « أفندم » « أفندم » . كان نداء الأرقام مثل أنشودة دينية رتيبة حزينة « ستة وخمسون .... ثمانية وستون ... مائة وعشرون ... أفندم ... أفندم ... أفندم » طريقة عملية مريحة لتعلم الأرقام ولمعرفة عدد البياضات اللازمة ، وعدد مفارش الأسرة حتى لا يضيع الوقت سدى ، لكن ياتري ما مدى الاستفادة من ذاك الوقت ؟

كان المصباح الكهربى يبعث ضوءاً خافتاً يشوه إطار لوحة العذراء ، وينعكس على دهان الدواليب ثم يخبو في أخاديد الخشب ليصوّر فى النهاية رؤساء كرؤس الاشباح ، رؤوسا" تكمن فى الاشياء

وكانت خيالات منزلى تتفتح أمام عينى كزهورتتفتق فى الجو الدافىء . «أربعة عشر ... أربعة وثلاثون ... آه انه دوري . أفندم !»

كنت أرى أشعة الشمس تسقط علي السجاد ، اشم رائحة الطعام ، أسمع ظريفة تقول : « ياالله روحى غيرى هدومك أحسن بابا جاى بعد شوية » وحين كانت المشرفات تستحثنى : « إجرى إجرى شوفى طرحتك أحسن إنتى متأخرة » كُن يبرطمن ويطقطقن بصوت جاف : « بسرعة بسرعة ! كل واحدة تاخد طرحتها ، ومتنسوش السبحة . بسرعة ! كويس كدة ! روحوا الكنيسة بنظام وانتو ساكتين »

وفى حجرة الدراسة ، كان كل درج فاغرا فاه ، محشواً بالكتب والكراسات والطرحة السوداء والكقفاز الابيض وكان كل ذلك يبدو من فتحات الادراج .

كانت بعض الفتيات يحاولن النظر فى المرآة المخبأة بين الاوراق القديمة . أما أنا فلم أكن أهفو الى النظر في المرآة . فالخمار يحيط بوجهى كالسجن الذى يقيد الحريات ، والقفاز الابيض مثل مانع يبعدنى عن الاشياء ، حتى المسبحة ذات الحبات الخشبية الجميلة كانت لا تروق فى نظرى .«بسرعة ! بسرعة ! بنظام ! بهدوء ... اللى بيتأخروا همة ! همه ! ...»

كانت جوزفين تحبس ضحكاتها ثم لا تلبث أن تفلت منها وهى تجرى لتأخذ مكانها فى الصف . أما أنا فكان كل شىء يتوقف فى داخلى : الحجاب والجورب الأسود وحتى الجدران . ام يكن ثمة شىء يتلاشى فى نفسى بهزة كتف . كنت أختنق ، أتمنى أن أضرب نفسى ، ورغم ذلك ، كان هناك خوف ما فى داخلى ، خوف غريب ، لهذا كنت أواصل المسير أجيب على النداء ، أخف فى الصف وأتبع التعليمات كانت التنورة تحف باطن ساقى ، الصفوف تتدافع حتى يفقد ظلى مكانه . لم أكن أسمع فى الصف غير « طق . طقّ » ووقع أقدامنا الذى كان صداه يتردد عالياً فوق السلم .

وفى مقابر المدينة القديمة ، كانت والدتى ترقد تحت أحد الشواهد ، يقولون إنها كانت جميلة ، كنت آدقق النظر فى صورها ، تبدو فى الصور بعيدة ، هناك ، بعيدة . ربما يكون المرء أفضل حالا حينما يرقد تحت أحد شواهد المقابر .

فى كل عام اذهب لأضع الزهور على مثواها الأخير يقف والدى بجوارى ويحنو علىّ ويربت على كتفى هامسا فى أذنى : « بالطريقة دى البنت تضيع شبابها ! »

كنا نسير متلاصقات فى الصف . وكانت الجدران تعلو وتعلو ، وربما لم تكن تكف عن الارتفاع . وكنا مثار حسد الكبيرات فى السن .

كانت الكنيسة شاهقة بيضاء ، ترتفع إلى عنان السماء . وحينما كنت أسمع فى كل مرة « طق طق » كنت أدرك أن علىّ أن أركع لأسجّل اسمى وانهض . وبعدها كنا جميعا ندخل الكنيسة ، لابد أن ترتفع الصلوات وأن ترددها الأفواه فى وقت واحد .

لم تكن تلك الصلوات تعنى شياء بالنسبة لى ، ولم يكن للكلمات المكررة مغزى ، تلك الكلمات التى تتوالى وترددها الألسنة آلياً وبلا عناء .

لهذا كنت أضغط على شفتىّ حتى لا تفرا الكلمات أو تنضب كنت أضع راحتى « على وجهى ، أحس بالنسوة حينما أعثر على كلمات أخرى . كلمات من عندى أحسها ، أستشعرها . كلمات حينما كنت أهم بنطقها ، تأتى متعثرة . كنت أغمض حفونى فأرى آخر ، عالماً آخر ، عالماً أضواؤه وردية ، أخرى فقاعات دوارة ، أرى زجاج الكنيسة المثقوب ، أرى زهورها وريش عصافيرها .

بعد أداء الصلوات يجىء دور الغناء . كنا نغنى لكل يوم أغنية ، يتسلل الطرب إلى أذنى فيبدد همومى . كنت أدقق النظر فى التماثيل وفى وجوه العرائس التى لم تعرف التجاعيد : علامة الغناء . لقد فقد خروف « سان جان » أحد أطرافه ، وأخذت زهور « سانت كاترين » فى الذبول ، كما لم يتبق من اسنان مفتاح « سان بيير » إلا ثلاثة . وكانت زهرات الزئبق في زهريات مثل كؤوس عالية الساق .

اما بيت القربات فهو بعيد محكم الغلق .

كانت العجوز القائمة على نظافة المطبخ تركع على ركبتيها تحت الزخارف الزجاجية الصفراء . تتقوس حتى تصير كالنقطة ، تخلع الفوطة السوداء قبل أن تدخل الكنيسة . وكان رداؤها

الرمادى يلتصـــق بالمقاعد المدهـــونة بالزيت منذ زمن قصـــير . تلوي شـــعرها وتلفه حتى يصير كتفـاحة ســـقطت من الشجرة منذ قلـــيل .

كانت ضعيفة السمع ، تردد الصلوات بدقة وحرص ، مبلغ علمى أن عينيها كانتا زرقاوتين لكن بصرها بدأ يتوارى من كثرة خياطة قمصان أطفـال لم يكونوا أطفالها . قـالت لهـا ذات يوم : « الأطفـال بيبـردوا ومقدرش أشوفهم كده ، ودى حاجة مترضيش أبونا » ثم رسمت إشارة الصليب ثلاث مرات لتمسح الخطيئة .

كانت جيوبها تنتفخ بملابس الصغار ، تأخذ منها ما يقع فى يدها بالصدفه لتضيف إليه بعض الغرز ، وذلك كلما سنحت لها الفرصة وكثيرا ما كنت أتأمل أصابعها المجعدة التى كان بأحدها خَاتم الزواج قد اتخذ لنفسه أخدودا أستقرٌ به .

كانت الرغبة الملحة تنتابنى فى أن أترك زميلاتى يرددن الكلمات البراقة لأسير بمفردى فى الممشى الرئيسى الذى يتوسط البساط الأحمر . وكنت أهفوا إلى الجلوس بجوار الأخت العجوز التي وجدت فى رفقتها كلمات تمنيت أن أقوم بترديدها وأن اسحب قطعة قماش مكرمشة من جيبها لأقوم بخياطتها رغم تجريتى القليلة . كنت ساعتها سأشعر بذاتى وأحس بالدفء فى قلبى

وكانت الأغانى تتوقف فور سماع : "طق"طق » تبتلها الأفواه الصغيرة علي الفور . وعند سماعها مرة ثانية كانت البنات تخرج من المقاعد ثم يركعن على الأرض ويخرجن فى صفوف منتظمة ، وكنت ارسم شارة الصليب بطرفي قفازى المبلل ، هناك عند جرن الماء المقدس : « باسم الأب ...»ثم أعود مرة أخرى .

وكانت العجوز تبقى هناك ، تهز رأسه وتزوم بصوت منخفض . كان ذلك يثيرا الضحك فى نفوس زميلاتى . وكانت تندهش لذلك : « أبْ أبْ ... فيه أطفال كتير بيتألموا ! اعمل إيه ؟ »

كنت اتمنى أن تتذكرنى فى صلواتها وأن تصلى من أجل . لقد كنت فى الحقيقة أرتدى ملابس تقينى برودة الشتاء ، لكن تلك الملابس لم تكن تحمينى من نفسى . كانت « بنت ناس » ناعمة الأنامل أرغب أن تأخذ العجوز صورتى لتقبلها وتضعها بين صور الأطفال الآخرين . كان صوتها - آنذاك - سيصعد إلى السماء من أجلنا جميعا .

وكانت العجوز الصغيرة الحجم تغرق فى صلواتها بالكنيسة العليا كنت اتركها وأسير فى الممر الدائم الذى لا يتغير ومسبحتى تحيط بمعصمى . كنت أرى طرحة « عايدة » طويلة . تصل إلى أردافها فتبدو وكانها داخل إحدى شباك الصيد .

ذات يوم رأيت سمكة متمردة ، رأيتها تخرج من ثقب فى الشبكة ثم هربت بعد أن تركت وراءها كثيرا من القشور . أخذ أخى يكيل لها من الشتائم والسباب ثم انحنى فوق الماء ينظر فيه . كنت واقفة بالقرب منه عندما تشابكت يداه فى يأس . لم يكن يملك لها حيلة . ساعتها كنت أضع يدى تحت إبطى وأضغط كى لا أصفق دون أن أتمالك مشاعرى من فرط الفرصة

❂❂❂

سبعة أيام طويلة . مساء الأحد ويوم الاثنين ثم يوم الثلاثاء الذى يأتى الأربعاء بعده . أجتاز هذه الأيام بصعوبة كمن يدخل فى ماسورة ، أجتازها حتى أصل إلى يوم الخميس ، يوم زيارة أخى فى حجرة الاستقبال .

كان « أنطون » يأتى على الدوام فى حجرة الاستقبال ، انه يملك

حاسة الإنتماء الأسرى . يجلس على كرسى مخصص للزائرين وأجلس أمامه بقفازى الأبيض الذى كان بالنسبة لى واقياً وحافظاً .

كان كل من ينظر إلي الآخر دون أن يكون لديه مايقوله ، يرتدى حلة مضلعة ، يحرص دائما على أن يظل بنطلونه مرفوعا حتى ركبته أثناء الجلوس . وكنا كذلك ننظر إلى الآخرين . كانت جوزفين يضفر شعرها بشريطين من الساتان ، وعايدة تقضم الملبس التى تمتلىء به جيوبها لدرجة أنه يلتصق بها من الداخل ، فكانت تزيل ماعلق بها . بسن القلم فيتسخ الثوب . كانت تلك لعبتها المسلية طوال ساعات الدراسة البطيئة . وكانت ليلى كأمها تماما بنظرتها الحزينة . تتلاقى نظراتها وتتعانق عيونها وبعدها يتعلق فى بندول الساعة وسط القلق البالغ .

وكان أخى ينظر إليها هو الآخر فى قلق ، لكن قلقه كان من نوع آخر ، كان دائما يجد الأعذار حتى يغادر المدرسة قبل الموعد ، لا أدرى كيف ! .

كنت أضع خطاً أحمر فى مفكرتي تحت يوم الجمعة والسبت والأحد .

كل ذلك كان يدور فى رأسى أثناء تناول الطعام والنوم فى العنبر ذى الستائر البيضاء التى تحيط بالأسرَّة . أما ليلى فتنتحب واضعة رأسها فى الوسادة فأسمع صوتا يقول : « سكوت ! »

لم تكن دموعى من النوع الذى يسيل بسهولة لكنها تتسمر فى جدار حنجرتى وعينىّ تعرف متى تسيل . لماذا كنت ياترى أزرف الدمع ؟ اسهل أبكى على أمى الغائبة ؟ ذلك الوجه الصغير! أم أبكى ياترى ؟ أبسبب الحواجز والموانع بين البشر ؟ ام لأنى استشعر الضيق والملل ؟ أم لأنى لم أكن أجد مبرراً للبكاء ؟

كان النعاس يغلبنى فجأة فى بعض الأحيان ، ساعتها كنت أغيب فى

ظلمات تتكالب فوقى فتغرقنى فى غياهب النسيان ، ثم لا تلبث اليقظة أن تأتى فجأة ، يقظة بغيضة إلى نفسى ، يقظة ترسلها إلى دقة الناقوس حين تهوى فى أذنى مثل نقطة الماء البارد !

وكنت أحيانا أخرى أنتظر النعاس وأترصده وأستجديه ، وحينما يقترب ، كنت أتوق إلى تذوقه ورؤيته يتسلل فى قدمى وصدرى وذراعىّ . كنت أهفو إلى تعطيل الستاير كى لا أرى الوجوه والمنزل وآلامى التى ليس لها حدود .

كان ألمى يداعب ما تبقى منى ، يرقص بخطى مختنقة خامدة . فى تلك الآونة كانت أنات ليلى تفقد هى الآخرى معانيها إلى درجة أنها لم تكن تجد لديها الرغبة فى البكاء .

كانت أفكارى تتداعى ، تصير جميلة ، أفكارى التى هى الرباط الوحيد الذى يصلنى بالحياة . أدقق النظر وأحملق ، أود أن اكون كائنة ، وأن أؤخر اللحظة التى اكون خلالها غير كائنة .

يفارقنى النوم فى الصباح بسبب ما ينبعث من الأضوء فى كل اتجاه ، يفارقنى ببطء مثلما يفارق الألم الجرح . يفارقنى حينما تتفتح الابواب وتتابع الخطوات ويكثر المسير. وهكذا وبهذه الطريقة إعتاد النوم على هجرى .

كانت جوزفين أولى من يقفز من السرير ، وكنت اسمع صوت الماء الذى تصبه فى الحوض ، وتنهيداتها السعيدة القادمة من اعماقها وهى تطوى أغطية السرير . كانت تخرج من نومها نشطة جميلة كما لو لم تدخله قط ، ترتب الأشياء وتضفر شعرها . وكانت كذلك تساعدنى فى تطريز أغطيتى خلسة .

كانت جوزفين مرحة لا تضع شيئا فى الحسبان !

من نوافذ حجرة الدراسة الضيقة ، كنا لا نكاد نرى الأشجار ، وكان الصيف يعقب الشتاء من غير أن نشعر بذلك . كانت الكتب وحدها هى التى تتحدث عن دورات الفصول !

وكانت سعاد ذات الشعر الأسود والوجه الذى يتناثر النمش فوقه ، تكتب أرقاما على السبورة . وكانت كراستها فى مادة الرياضيات تحظى باعجابنا تحمل معها أقلاماً ملونة تجمل بها الكراسات بخطوط بنية دقيقة تستخدم المسطرة بدقة ومهارة ، ترسم حروفا اسمها الأولى بفن وذوق .

وكانت المدرسة تشير إلى بإصبعها النظيف معلقة على مظهرى : « إنك تعيشين مع الخيال وفى الخيال . » وكانت تلك مقولة والدى على الدوام ، قائلا كذلك بإن هذا لا يفيد فى شىء .

اما إخوتى فكانوا يسخرون من فى الحساب ويضحكون من كتاباتى : « ها ! ها ! ها ! أشجار عارية كالذراعين ! » ووالدى يقول : « قريب لازم نفكر فى موضوع جوازك »

كان قلق والدى على أن أتزوج أكثر من قلقه على مستواى فى الدراسة ! البنت مشكلة كبيرة ! وهكذا كان سعيدا لانه لم ينجب غيرى ! كان هادئا راضيا بأن أتربىً فى المدرسة على مبادىء معينة تؤهلنى للزواج بلا مصاعب .

ولكن ما موقفه من تعليمى ؟ يرى أنى حصلت على قسط وفير منه قائلا : « مدام هتقدرى تكتبى جوابا لبابا العجوز عشان تعرفيه أخبار النونو كفاية قوى .» كانوا ينجبون لى الأولاد ! وذلك حتى أصير فى سن تجعلنى أتطلع إلى انجاب هؤلاء الأولاد .

كنت بالكاد قد تجاوزت مرحلة الطفولة التى تحمس الجميع لسلبها منى . طفولة مسكينة مختنقه أبعدوها عنى .

كانوا يسرقون منى طفولتى المشوهة ، يسرقونها ليلقوا بها فى غياهب سراديب لا نهاية لها ، سراديب تقود إلى أبواب مغلقة .

وكانت هذه الفكرة تطحنني : « الحياة موجودة ، كائنة مستمرة ، نهر كبير ... ولو أمكنك أن تزيلي ما يعترض طريقك من البوص والأعشاب الميتة ، أمكنك أن تعيشي حياتك في بهجة وبشر . »

كان والدي يقول ونحن نتنزه على شاطيء النيل : « خطر قوي إن الواحد يقرب من الشط لما يكون فيه هيش » ويقول : « خطر قوي ! الواحد يزحلق ، يقع وبعدين يغرق ! »

كانت سعاد تكتب حروف اسمها على السبورة ، وعايدة تصفف شعرها في رشاقة دون أن تساعد المدرّسةَ نظارتها السميكة على رؤية ذلك ، كما عملت جوزفين لنفسها قناعا من الورق البنفسجي لتبدو وكأنها الشيطان ، لكنها لم تبعث الخوف في نفوسنا !

قريباً سوف أُزفّ إلى عش الزوجية ، سأنجب الأطفال ولا بد أن أنجب سريعا . كان هذا يشغل ذهني وأنا في الحمام . كنت ادخل الحمام مرة كل أسبوع ، ألبس قميصا ناصع البياض يطوق رقبتي ويطول حتى يصل إلى قرب الكعبين . لم يكن عاريا من جسدي غير الذراعين .

كانت العادة أن استحم من خلال القميص لأبعد عني الأفكار الشريرة ، وقد سألت سعاد التي كانت تعرف الإجابة عن كل سؤال ، فقالت شروحا طويلة غامضة أضحكتني .

كنت أدعك حتى ينفذ الصابون من خلال القماش إلى جسدي وكان الماء ينفخ القميص الذي أرتديه حتى يصير كالبالون .

وكانت هناك أشجار بالفناء الذي كنا نلعب فيه بالكرة . كانت الكرة تصفر في أذني . لم أكن أتمكن من اللحاق بها ، لكن جوزفين كانت تلتقطها بخفة ، فتحدث صوتا ذا رنين .

كان كل خيط فى ثوبى يمثل عبئا على جسدى . كنت أريد أن أبعد نظرى عن الأخريات ، أن أذهب إلى حيث العشب الأخضر بحثاً عن البستانى الذى يحمل فوق ظهره خرطوم المياه على الدوام . كان الرجل يحنى ظهره حاملا الخرطوم الذى يتلوّى كالثعبان وكانت طاقيته المبططة المطرزة تحيط من الحرير تغطى رأسه الأصلع .

ماكان لى أن أقترب كثيراً من أمين . كان غيوراً على أزهارها ، يحنو عليها ويحدثها بصوت حنون كمن يتحدث إلى أطفاله الصغار . كان يستحثها للنماء : « الربيع قرب يخلص ! »

كان حين يصادف النجيل أو العشب الضار يلقى بالخرطوم أرضا دون أن يغفل عنه طرفة عين كما إنه يخشى أن يهرب منه ، وحين يفرغ من مهمته ، يعلقه فى أقرب مشجب . ساعتها كان الخرطوم يبدو وكأنه حيوان مربوط من رقبته .

بعد ذلك يدفع أمامه عجلة الحديقة وبها زهريات تتلاطم فتحدث أصواتا مكتوفة .

وفجأة أسمع صوتا يقول : « أوت ! » كان إلتقاط الكرة من الهواء يثير ضحكات وصيحات حماسية . من اللازم أن تبتعد الكرة أكثر حتى لا تصل إلى أمين .

كنت أعشق رؤية أمين ،أميل إلى سماع صوت الزهريات الفخارية المكتوم حينما ترتطم ببعضها البعض . كنت أرغب فى مساعدتى ، هو يفرش الممرات بالرمال ، وهو يدفع أمامه عجلة الحديقة ، يفتح المياه فى الخرطوم ليروى الممرات ، يجمع الأعشاب الذابلة من أماكن متفرقة ان اساعده فى اطلاق المساء على الحصى والجدران التى ألهبتها حرارة الشمس . •

كنت أهوى أن أستشعر الماء في يدى ، وثوب أمين ينضح بالماء ، ثوبه الذى يلتصق بجسم ، أستشعره وأقدامه تغوص فى الطين تاركة وراءها البصمات . كان سعيدا بحق .

وحينما دق جرس الفسحة بدا خد جوزفين مخضبا بحمرة نشوة الانتصار : « عملت خمس » : « أوتات ! » ولما كانت قد خرجت عن قاعدة الصمت فى الطابور ، فقد أخرجت منه ، واختفت البسمة من فوق شفتيها ، لكنها ظلت مختبئة : في داخلي ! ودون أن أدرى كنت أنا الذى أتحمل عقابها . كان عقابها يؤلمنى !

❂❂❂

كان أمين يقدم أزهارها أيام الاحتفالات وفى الاعياد . وكان خرطوم الرش عنيدا يطفح الماء تحت قدميه ، عندما نقترب منه ، يلوح أمين بيديه لنبتعد حتى يتفرغ لدخول البيوت الزجاجية من أجل رعاية الأزهار يجوب الطريق المرة بعد المرة حاملا الزهريات الفخارية فى يديه بحرص شديد ، شارحاً لنا أن الزهور ستتخنق إذا دخلنا البيوت وراءه

كان لا يفتأ يقول إن العيد جميل إلا بالنسبة للأزهار ، يثقل علينا بنصائحه وتوصياته ويظل يسير وراءنا بساقيه . النحيفتين حتى نصل إلى درج السلم الكبير .

ام تكن أزهارأمين من اجل أن تجمل الممرات التى تمر بها واحدة وراء الأخرى بملابسنا البيضاء من اعلى الرأس إلى القدمين وفى أيدينا شموع تسقط حبات ساخنة حارة . كانت هذه الأزهار تذبل مثلنا بين روائح البخور وأضواء الشموع .

كانت التماثيل مزدانة والخادمات كالطيور السوداء بملابسهن التى تحدث حفيفا كحفيف أوراق الشجر . لقد انتشرت الخادمات فجأة وكأنهن يرتدين أجنحة بدلا من القفازات وموسيقى ملائكية حالمة

تنتشرين الطوابق وكانت جوزفين مبتهجة ، أما أنا فكنت أرانى أسير صوب مقبرتى .

كنت أجدنى ممدة ، محصورة مضغوطة فى ثوبى الأبيض ، جميلة فى موتتى ، أرتدى قفازى الأبيض الذى كانت ظريفة قد غسلته فى عجالة ، كان شعرى مدهونا بالزيت لامعا . كنت مضغوطة فى التابوت ، لقد انصهرت فى الدمع السخين يوما كاملا ، ذلك الدمع الذى كان من حولى يزرفه منْ أجلى .

كان كتفا ليلى» يرتعدان وأخذت جوزفين تلوح بسلسلتها الذهبية فى عصبية ، أما عايدة فشرعت تفرك فردتى حذائها فى بعضهما وكانت سعاد تردد إسمى دون أن تشعر .

كانت الراهبات ترددن سلام الملاك جبريل إلى العذراء بصوت رتيب عندما دخل أمين الحجرة وفى يده إصيص أزهار وضعه قرب سريرى .

حينذاك تحولت نبرة صوت والدى إلى نغم حالم ، كان يرسم على كفيه المتجاورين علامة الصليب ، أخذ إخوتى يقبلوننى فوق الجبين ، كنت احس بالدموع فوق جوانب شفاهم .

كان ذلك اليوم يوم عيدى ! فقد كنت يومها فقط غالية عند الجميع !

يومها نسيت أناشيد تلك الفترة الفاترة الرتيبه ، نسيت رؤية الأزهار ، أضحت بروئحها سقيمة . نسيت ماقاله أمين : ماكان لها ان تنام الليالى ، هذه لياليها ، ليالى الاحتفال بها .

وكان هناك احتفال آخر ، الاحتفال بعيد المدينة ، كان مهرجان العيد يمر تحت نوافذها مرتين فى العام .

العربات تجرها حمير حول رقابها عقود زرقاء تطرد عين الحسود تحمل الفتيات الصغيرات بثيابهن الزاهية المبرقشة بألوان متعددة

كانت تلك الالوان تمتزج بلون ملابس النساء الأسمر . اكبر النساء سناً تقوم بالغناء . تضع كفها أمام فمها وتغنى ، ثم تبعده وتقربه من فمها . البنات والنساء يرددن وراءها بصوت جماعى يطرب الأسماع ، يصفقن بايقاع جميل ، تشد الواحدة منهن غطاء رأسها حين يكشف عن بعض شعرها ليستقر مكانه .

العربات تصدر ضجيجاً حاداً . الحمير تسير بصعوبة وبطء ، الصبية يشقون طريقهم بين البنات والنساء ، يأكلون الفول والسردين والبصل الأخضر .

كنت أتمنى أن يتوقف الزمن أمام سعادتهن الغامرة ، لكن الغطاف الشارع كان يبتلع الواحدة بعد الأخرى ، ليذهبن هناك بى الحدائق الكبيرة حيث يجلسن ويغنين ويضحكن ويأكلن .

وفى داخـــلى هنـــاك صوت ينادينى : ما كان لك ان تنظـــرى من النـــافذة .

٭٭٭

كانت الواحدة منا تختفى قبل نهاية العام فى بعض الأحيان يحيط الغموض بغيابها ، يصل خبر زواجها إلى مسامعنا ثم لا تلبث أن تعود إلى الكنيســـة فى صـــحبة زوجـــها من أجل أن تضـــع فيه صحبة كبيرة من الورد .

وكـانت فكرة الزواج تراودنى بين الحين والآخـر ، انصب فكرى على الزواج الحـقـيـقى ، فى اللقـاء الذى يتم بين اثنين من الكائنات . من الضرورى وضع حد لهذه الوحدة . أحلم بذلك الزواج الذى هو الحب ولا سواه ، فى تلك الثمرة المستديرة ، فى مذاقها وحلاوتها . وحينما كانت أفكار الزواج تداعب مخيلتى أتذكر أمسيات الصيف التى ينغمس

الواحد خلالها فى خوخة حلوة تروى الظمأ.

رأيت احدى الزميلاتى حينما كانت تهم بالرحيل قالت : « كنت بدوّر عليكى »

جلست على مقعد ، لم اكد أتعرف عليها بعد زواجها ، كانت تلبس الكعب العالى ، تغوص فى معطف من الفرو ، تلبس قفازا من جلد الأيل الأسمر وخاتما من الماس فى يدها .

تبدو عجوزا دميمة فى حليها ! وكان زوجها يلبس خاتما ودبلة من الذهب . حين نظرت إليه أحسست برصيده فى اليتك كان قصيرا أصلع الرأس .

وددت أن أضرب سارة وودت كذلك أن أضمها إلى صدرى لأبعد عنها ذلك الكابوس : قالت لى فى زهور وافتخار : « لازم تيجى تزورينى عشان تشوفى الجهاز بتاعى . »

كنت خجولة لإزعانها وخضوعها ، لشبابها الذى لا طموح له فى الحياة . كرهتها لكنى فى الوقت نفسه أحسست أنها مقهورة مغلوبة ، فوددت أن أضمها إلى صدرى ، أن أتنفس فى فمها لأهبها الحياة وأزيح عنها ما اعتلاها من غبار .

وكانت تضحك « هيجوا كلهم بيتى » . وتحدثت عن منزلها الفسيح وعن خدمها الخمسة . « هتشوفوا كل حاجة » . ودعت كل زميلاتى . «لازم تعرّفيهم ياسامية . هبعت لكم السواق تركبوا معاه »

لا ولن يحدث لى مثل ذلك على الاطلاق ، سأستطيع أن أقولها . سأمسك بحياتى عندما سأرحل عن هنا . سيكون فى مقدورى أن أدير دفتها حسب إرادتى بكل تأكيد .

فجأة تغزو مسامعي صوت والدى يغزوه مدوياً وفى حدة . كان يتردد فى أرجاء المنزل وينتفخ : « هنجوزك . هتجوزيه ! ... » هتجوزى الرجل ده ، وإلا إنتى حرة وهتشوفى »

( ٣ )

كان المنبه يذيق لسانك حلاوة الأمل . فى يوم الأحد . تحاول الذكريات أن تغزوك بما فيها من خيبة أمل بعد اسبوع من الانتظار ، ذلك ما بدأت أصدقه .

كنت يوم الأحد أزيل الغبار عن ثوبى بالفرشاة ، أعتنى بتصفيف شعرى . وكان للساعات معنى موعد الرحيل .

علىٌ ينتظر أمام السور الحديدى و ألمح محياه الاسمر الدقيق وقلنسوته الحمراء المستقيمة .. كان فى اغلب الأحيان يأتى بمفرده ، لكنه احضر معه إبنه هذه المرة . كان ولده يلبس عمامة طويلة رغم أعوامه العشرة كان أشد سمرة من أبيه وفوق خده نفس الشّامة التى فوق خد أبيه .

كان يفتح الأبواب وينزل عند محطة البنزين وأبوه يتحدث عن أحوال الزمان والسياسة واضعا كوعه على باب السيارة كانت آراؤه فى الحياة والسياسة تتفق مع آراء والدى الذى لم يفترق عنه خمسة عشر عاما ونيف .

تهل الظهيرة ونحن نجتاز المدينة فى طريق العودة . كانت السيارة تمر أمام الحوانيت وتتخطى عربات الحنطور التى تسير فى هدوء كما لو كان الزمان لا وجود له. اما الأشجار والأرصفة فتتلاشى أمام ناظرى ، لم يكن هناك من يعترض مسيرنا ، وكان الدخان يتصاعد من محطة القطار مختلطا بدخان المصانع ثم يتبدد بعد ذلك ليرتفع فوق أسطح

العمارات والمنازل .

كان ظهر على ثابتا لا يتحرك بينما عروق رقبته هى التى تتحرك شمالا ويميناً مع مسير السيارة وتخطيها العقبات ، تقف أمام الاشارة الحمراء لحظه وتزوغ فجأة لتتفادى أحد المارة . يحنى على رأسه خارج السيارة ويصيح فجأة : « ياابن ال....لازم الحقك ... واكيلّ لك بالكمات ! » ثم يستعيد هدوءه ويبرطم : « بيناموا واقفين ! »

كان زعيقة هذا يتبدد ويتوارى بين الحوارى ليقابل زعيقا آخر فى اماكن واسعة بعض الشىء . كان يغلظ ويزداد مع كل خطوة حين تنضم إليه أصوات اخرى . كان يأخذ أبعادا غريبه قبل أن يهاجم الميدان ليحيط بتمثال الفارس الذى يكسوه الغبار ، وذلك قبل أن يرتطم بنوافذ العمارات مثل دوامة الزوبعة التى تدور حول عربات الحنطور المصفوفة الساكنة .

كان بالأمكان أن أصيح دون أن أسمع صوتى ، بينما تتوغل الضوضاء فى كل مكان دون أن يفكر أحد فى كبح جماحها إلى أن تصير مثل طنين النحل ، أو دقات الساعة أو أعماق الكون البعيدة .

حتى المدينة كانت تمر أمام ناظرى بسرعة لتعبر فى النهاية مجرد صورة عابرة ، تمر وسط تلك الضوضاء ، وكانت رغبتى فى التقاط صورة المكان أو المارة تتبدد على « رفارف » السيارة فكنت أجلس وحدى فى الكرس الخلفى أزيل قشور كسوة السيارة المتآكله بأظافرى .

كان الطريق ينتهى عند منزلنا الذى يبدو رابضا متماسكا بفضل أعمدته الضخمة القوية التى تحمل الشرفة الرئيسية ... وعادة ماكان والدى خارج المنزل ساعة وصولى .

لقد غادر المنزل هو وأختى الخمسة للتنزه فى الخلاء ولقضاء بعض

الوقت فى الثرثرة حول منضدة باحد المقاهى مع بعض الأصدقاء .

كان البواب يغط فى نوم عميق حينما وصلنا . تدلت رأسه فوق صدره بينما فعله الأصفر يلمع على الأرض . لم يكن ثمة شيء يخرجه من النعاس إلا عربة سيدة . عند ظهورها وكأن صوت عجلاتها يخرق طبلة أذنه فى أقل من لحظة فانتصب واقفا ، يصلح من قلنسوته لتنتصب هى الأخرى واضعا نعله فى قدميه ثم مد يده ويفتح الباب الحديدى .

تحجرت عيناه ثابتة بلا حركة ، تنظر إلى أعلى كما لو كان يخشى أن يرمش بجفونه فتعود إلى ما كانت عليه وينام من جديد . ظل نائما طوال النهار فى وضع غير الوضع الذى اعتاد عليه البشر . كل مهمته ان يفتح الأبواب ويتلقى الشتائم فى هدوء من والدى وإخوتى . لم يكن هناك شيء يؤثر فيه وكل تركيزه على تلك النقطة التى تعلو رؤوسهم بقليل . وحينما يركبون السيارة أو يدخلون المنزل ، يعود وينحنى على مقعده من جديد .

أخذ مردوك ينبح ، لم يكن يعرفنى على الاطلاق . كان من اللازم بذل الجهد حتى يقتنع ويتركنى أمر . فقال له : « دى مش غريبة ، دى بنت البيت ! » « إمش إمش يامردوك » مصمم أن يُعرف الكلب من أنا : « دى الست سامية بنت البيت »

كان النمل يسير فى هدوء فوق درجات السسلم الحجرى الأبيض متجها إلى مسكنه الكائن من الدرج ، ولم يكن مردوك يزعجه أو يؤذيه لأنه كان معتادا على رؤيتة .

تقدمنى علىٍّ حاملا الحقيبة وكعب حذائه يدق المكان اما مردوك فراح « يشمشم » فى ذيل تنورتى . فتح باب الصالة قليلا ثم دخل ودخلت وراءه فى الصالة ذات البهو المرتفع ، تلك الصالة التى تقود إلى سلم آخر من الرخام له درابزين من الحديد المزخرف .

وكانت حجرات النوم فى الطابق العلوى . حجرتى تواجه حجرة آخرى متشحة بالسواد ، ومنذ أن حملوا والدتى إلى مثواها الأخير ، ظللت أحس بوالدتى خلف الباب طيلة عشر سنوات لدرجة جعلتنى أفكر فى كسره ! عشر سنوات وهى ميتة بالداخل .

كنت أود أن أراها بالداخل حية !

وذات يوم قال والدى : « انتهت المدة خلاص ، هنغير دهان الباب ونفتح الأودة عشان يتجوز فيها واحد من إخواتك »

وبعد انتهاء فترة الحداد ، كان لا بد أن تنس أمى .اماه ! اماه ! أيتها الغائبة . هذه هى صورتك تجسدت فى طفولتى !

كانت حجرتى رطبة عفنة الرائحة ، وحينما كنت أفتح نوافذها ، كان العفن يطفو بقعا على الخشب المبطن للجدران ، كما يبدو على شكل سحابات من الغبار ، كنت أخلع ملابس المدرسة والقى بها فى الركن القصى المظلم من الحجرة احس اننى . فى سجن لا يفارقنى على الدوام .

۞۞۞

سمعت صوت والدى وإخوتى الخمسة ينادون تحت قبة البهو : « عبده ! ياعبده ! » انهم جوعى يستحثون الخادم ليعيد المائدة . اما والدى فراح يعمل على تهدئة إخواتى قائلا : « النهاردة الأحد ، لازم ننتظر سامية »

أسرعت ألبس فستان الخروج الذى أعدته ظريفة ليلة الوصول . دق والدى على جدار الحجرة قال : « سامية ... ياسامية ! ... » وكانوا بدورهم يتوعدون بتناول الغذاء بدونى ، لكن والدى كان يمنعهم واقترب من السلم الكبير مرة ثانية وصاح : « سامية يابنتى ... إخواتك جعانين تعالى بسرعة إحنا منتظرينك كلنا ! »

تعثرت وأنا أشبك الفستان ، لم أجد وقتاً إغير فيه جوربى وبينما أنزل السلم أجد أسوداً إلا حذائى اللامع . كان شعرى منكوشاً ، فلم يسعفنى الوقت حتى أصففه

قهقه أخى كريم أسفل السلم : « إيه رأسك دى ؟ .. أنا حظى عال إنى أخوكى بس ! بينما يضحك الآخرون : « أخيرا جيتى ! » حين بدأت أهبط السلم خيل إلىّ أنه بلا نهاية . وكان والدى يهمس فى أذن أخى الأكبر « جرجس » الذى كان يشبهه كثيرا إلى درجة تجعلك لا تفرق بينهما من الظهر .

وقبل ان اجلس إلى المائدة ، قبلتهم جميعا الواحد تلو الآخر ، كانوا يطبعون القبلة على خدى . وكان مكان الأطباق والملاعق نظيفا وسط الغبار المتناثر فوق الرفوف الزجاجية .

كانت وجبة الأحد عبارة عن شربة ملوخية مع أطباق الأرز ولحم الضأن والبصل والدجاج . راح أخوتى ووالدى يلتهمون قطع اللحم الكبيرة فى فمهم . أخذت آكل مثلهم بشهية مفتوحة

كان جرجس قد تخطى عامه الثلاثين ، أسمر البشرة عميق النظرات ذا عينين ماكرتين تضغيان البشر على وجهه المتهدل الملامح

ورغم أن كريم اكبر من يوسف بست سنوات ، الا أنهما كانا لا يفترقان . كان كل منهما معجبا بالآخر ، يكن له الحب والإعزاز . يتحدثان عن النساء والسيارات وأربطة العنق ، ويهمسان فى أذنى عن أسرارهما .

ولم يكن يوسف قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، ورغم ذلك يزهو بمعرفته للكثير من الفتيات ويقسم بالأيمان المغلظة أنه لم يتزوج قبل سن الخمسين .

اما برسوم فقد رد على كلامه قائلا : « أنا خلاص عزمت على الجواز السنه دى .» ثم طلب من والده أن يقترح عليه فتاة تناسبه . فتاة جميلة .

ولما كان والدى يحب أن نستشيره فى أمورنا ، لذا قال « كويّس ، كويس ياابنى . هفكر فى الموضوع ده ! » أفاد بأنه سيشعر حتما على عروس تلائمه وأنه سيذهب لزيارة عماتى وبعدها يقابل القسيس .

كان برسوم يتطلع إلى الزواج من أسرة كبيرة يرشحها له أبوه . يريدها فاتنة صغيرة : « بالتأكيد ياابنى لازم تتجوز بنت صغيرة تشكلها على مزاجك .»

أما أنطون فظل صامتا انه أصغر إخوتى مهموما فى بدانته . وكانت الأسرة تتزاحم فى رأسه وخلف نظارته ذات الإطار الذهبى . « بتفكر فى إيه ياأنطون ؟ عندك حاجة بتفكر فيها عشان أخوك ؟

– عاوزين نجوزه صغير ، مش كده ياأنطون ؟

– لا بد نجوزه قبل سن الخمسين مش كده ؟

تطرق الحديث عن شئون العائلة « بنت عمتنا » ثريا « عندها اكثر من عشرين سنه ومتجوزتشى لسه ! ويدوب إخواتها البنات بيدخلوا يقابلوا الضيوف فى الصالون .»

وأضاف والدى قائلا :

– « أيوه متجوزيتشى مع إن مهرها كبير! » .

أنطون : « بتتعزز ياسيدى ورافضه »

والدى : « تتعزز ؟ انا شايف كويس إن مفيش فى البيت راجل . وأختى ملهاش كلمة . بس تنادى لى . ساعتها هدخل فى الموضوع وتشوف إيه اللى هيحصل ! »

قال أنطون : « دى راسها ناشفة ! »

علق كريم : « راسها ناشفة ؟ دى نهايتها سودة ! »

– يوسف : « أيوه ! نهايتها سودة ! مسكينة ياثريا . ثريا حلوة ومسجونة ، نهايتها سودة ! »

ثم انتقلوا إلى الحديث عن شيء آخر . أسعار الأرز فى صعود . سوف يحققون أرباحاً كثيرة . سوف تحس ثريا بخيبة الأمل لانها تريد أن تختار - هى - عريسها . أولاد عمها فى الفيوم سيكسبون ثلاثة آلاف جنيه فى صفقة حبوب . تزوج إبن عمها - حنا - من عائلة كبيرة وورثت زوجته أطياناً كثيرة

قال جرجس: « ربنا يغرقك فى الجواز إنت كمان يابرسوم » ولم أكن أرى أحداً قط ممن حولى ! كنت أرغب فى الإنسحاب والكف عن الطعام .

سقطت جميع الأقنعة مرة واحدة . اسقطها على الأرض أحدى بطاقات الزواج .

كنت أتظاهر بعدم إدراك معنى ما يقولون أو كأنى لا أسمع شيأ مما يقال لم أود أن أتيح الفرصة للحديث عنى . ظللت آكل وآكل إلى درجة قائلة كمن ينتقم من نفسه

قال برسوم : « غالى إبن عمى ميستحقش ثروته ، المفروض ينحرم منها ! إزاى يسافر بره ويترك مصالحه عشان يشتغل بالرسم . خربشة ورسم عيال ! »

ومع أنتهاء الغذاء أمست الأصوات ناعمة ، وبدأ عبده ، يغلق شيش النوافذ قبل أن يشرع فى إعداد القهوة . يلبس جلباباً أبيض يتوسطه حزام عريض أحمر ، حزام يزيد فى دقة مظهره .

فك أبى رباط عنقه وقال : « روحى إتمشى مع ظريفة واحنا هنستريح لظهر . وعلى هيوصلكم بالعربية »

وفى تلك الأونة أخذ الخدم يعدون حجرات النوم فى الطابق العلوى ، يرتبون الأسرة التى ما كانوا يفرغون من إعادة ترتيبها بين الحين والآخر . وحينما كانوا يزيحون الستائر ، يصير البيت مظلما ويسود الصمت ولا تسمع غير نباح مردوك الذى يرى أن من واجبه أن يمنع النوم من دخول المنزل « كلما مر الترام يأخذ فى النباح .

وهكذا خفتت أصوات إخوتى وانتفخت أفواههم ، أخذوا يتركون المائدة فى تثاقل دون أن يلقوا إلىَّ التحية ، لكن أنطون همس فى أذنى : « أنا جاى الساعة ٧ عشان أوديكى المدرسة .

وكان والدى آخر الذين تركوا المائدة . يجد صعوبة فى الوقوف لثقل وزنه . وكان عبده يرمقه بعينيه فى عصبية ، ويضع يديه تحت إبطىْ والدى مع أول اشارة منه ليساعده على النهوض . ولم يستطع أنذاك أن ينحنى ليهبنى قبلة.

كان ساعتها بين اليقظة والنعاس ، يصعد السلم فى بطء ، وحين انغلقت الأبواب صرت وحدى تحت قبة البهو وحام النوم حول رأسى ليحط على كتفى .

أطلت ظريفة بوجهها الهادىء ، كان صوتها لا يكاد يصل إلى مسامعى : « العربية جاهزة ... إحنا فى انتظارك » تكرر الكلمات مؤكدة على مخارج الحروف . ومن غير أن ألتفت ورائى ، كان فى مخيلتى صورة لها وهى تحنى رأسها إلى الأمام ، رأسها الذى يعلوه منديل رمادى ، تصورتها وهى تمد شفتيها لترفع صوتها حتى أتمكن من سماعه .

كان كل نعاس المنزل يتدلى من السقف كالشرائط لتحيط بى وتغطينى وتثبتنى بالأرض ...

وكان على عبده أن يساعد والدى فى ارتداء بيجامته الحريرية ذات الخطوط الخضراء اللامعة .

ومرة ثالثة يأتينى صوت ظريفة :

« العربية جاهزة . تعالى . الوقت بيجرى . إحنا اتأخرنا » فور أن تجلس ظريفة بجوار على ، تستسلم للنوم الذى يتمكن منها فتتدلى رأسها على صدرها .

كانت تضع حزام الحقيبة الحمراء حول كتفى ، تلك الحقيبة التى لم تكن تحتوى على شىء إلا على صورة قديمة لأمى تمكنت من العثور عليها بعد مجهود كبير .

سرت وراء ظريفة التى نزلت درجات السلم الأبيض ، وكان حذائى ممسكا بقدمى حين فكر مردوك فجأة أن يطاردنى ، لا يزال يعتبرنى دخيلة على البيت ، مما حثنى على المسير .

وكنت بالفعل غريبة ، صرت أسير وراء العجوز السمراء بحذائها البسيط . أتبعها : ما هى قيمتى وماذا أفعل هنا ؟ وحين دخلت العربة ، انغلق الباب وجلست ظريفة بجوار على .

٭٭٭

سارت السيارة وسط المدينة الكسولة الواهنة وانظر إلى ظريفة نظرة جانبية ، وهذا علىٌ والشجَّةُ على خده . المدينة مخدَّرة تحت وطأة غبار كثيف ، جدرانها لا تلتقط أنفاسها لأن نوافذها مغلقة . وحتى الأشجار أخذت تهفوا إلى قطرة ماء . وكانت السيارة تبعدنى عن الشارع الذى كانت أشجاره تضرب زجاجها .

يوقف عليّ السيارة أمام محل مفتوح ، تاجر الثلج ينتظر الزبائن قائلا . دون أن نصدقه . : « عطش بيصح النايم » وكنت كلما أخرج أصيح على ظريفة أن تشترى لى « أيس كريم »

وفى تلك الساعة من النهار ، كان الشحاذون وحدهم دليل الحياة فى المدينة .. ورغم أن الأرصفة بدت خالية إلا أن جمعا من البؤساء تدافع نحونا عندما نزلنا من السيارة ، فأخذت ظريفة تسهم وهى تلوح بيدها كمن يطرد الذباب عن نفسه . كانوا يحيطون بنا من ناحية ، ولم أكن أرى غير راحات ممدودة وملابس بالية ولم أسمع غير أصوات الاستجداء والرجاء .

تمكنت ظـــريفـة من الخـــروج من الدائرة لكنى ســـــرعان مـا وجـــدتنى وســــطهـا من جديد . كنت شــــديدة الخجل وســـط أولئك البـؤســـاء من ردائى الجديد ومن الســيارة التى تقف فى انتظـــارى .

زادت ظريفة من إحساسى بالخجل لصوتها المرتفع حين قالت : « استنوا بس لما ارجع » ، « هتشوفوا يابلاوى » ، « يأولاد ال....» وذهبت تدفع ثمن « أيس كريم » .

ووصل بى الخجل إلى حد جعلنى أرتجف ، كنت أريدها أن تقلع عن ذلك وأن أعطيهم شيئا ، غير أن حقيبتى كانت خاوية ، إلا من صورة أمى ، لهذا رغبت فى الانضمام إليهم ! والسير معهم فى شوارع المدينة لأردد:« ليه ؟ » واستمرت ظريفة بقلبها الحجرى تقول : « كسلانين ! ...حرامية ! » وكسرت الدائر قوجرتنى إلى السيارة من ذراعى وعلى يراقبنا دون أن يتحرك . وحين فتح الباب أحنيت رأسى وركبت السيارة

كسلانين ! ... مصايب ! ... حرامية ! » انتى فاكرة حكاية زنوبة العجوزة ؟ قالت ظريفة وهى تدير وجهها لتحدثنى . كانت بالتأكيد تسبب

الضيق للسائق المسرع وهى تهتز وجهها الملئ بالتجاعيد و تحك انفها و تحاول ان تقنعنى بما تقولّ من اراء .

"دائما فى الوقت ده > ده بالذات ، زنوبة العجوزة اكل الناس عرفينها . كانت جلد على عضم . و الواحد يتعجب إزاى بتقف على رجليها . كانت بتصعب علىّ وأعطيها فلوس ، لكن الشيطان كان راكبها ! لما ماتت جِم الجيران يدفنوها ، تعرفى لقط إيه فى الهلاهيل بتاعتها ؟ » توقفت ظريفة لحظة لتنظرفى عينى : أعرف ما ستقولين لا بد أنهم وجدوا رزما من الأوراق المالية فى مرتبة زنوبة تكفى لبناء مقبرة كبيرة .

قالت ظريفة : « دى الجيران شالت راسها ودفنوها برجليها اللى بيغطيها التراب وايدها ممدودة ، ودخلوها القبر وإيداها لسة ممدودة » .

إستمرت ظريفةتتوى العبوات ملىء بالقسوة : « إيدها دايما ممدودة حتى فى المقبرة . وده جزاها ! .. دايما تشحت ، واحدة مقرفة ، تافهة ! » إيه ياسامية ! إنتى سامعانى ؟ !

ماذا تعنى كلمات ظريفة ؟ هناك بالفعل مساكن ، شحاذون كثيرون ، هناك من لا يستقون كلماتها إنهم يلحون طلبا للمساعدة وينسون زجرهم وسبهم ليعيدوا الطلب من جديد . « كدابين ! كسلانين ! ... سمعانى ياسامية ؟ أنا عارفة واحد منهم كان بيخّبى فلوس دهب فى رجله الخشب ، وواحد تانى كان بيشحت وعلى ذراعيه طفل مأجره بيشحت عليه . وساعات الواحد منهم يرمى نفسه تحت الترماى عشان يقطع إيده وإللا رجله ! »

ماذا تعنى تلك القصص ؟ إنهم هناك غطا مهم بارزة كالمسامير ، فوق الصدور والظهور ، أعينهم غائرة وأطرأفهم مبتورة ، يستعطفون الناس دون خجل أو حياء .

أردفت ظريفة تقول : « بلاوى ! ... حرامية ! ... بيلحوا فى السؤال .» ويضيف علىٌّ الذى نادرا ما يتكلم : « كلهم ولاد حرام ... كلهم . » .

۞۞۞

وأثناء العودة ، كان تويج الزهور الحمراء يتساقط فوق سطح السيارة فاكسبها ذلك منظراً بديعاً وكأنها كانت تتزين من أجل العيد . كانت أزهار الأشجار عنا قيد تتدلى اختلط فيها لون الدم الأحمر مع ضوء الشمس الذهبى اللامع . فى هذا المكان أخذ على يدور ببطء خصوصاً فى ذلك اليوم . يوم الأحد .

كان يرسم بالسيارة خطوطاً على شاطىء النيل ، ينزل ويصعد ، يعبر الكبارى الصلب التى أحيانا تفتح أسنانها فتبدو مثل أسنان الأشباح ، تفتحها لا ليسيح لإحدى المراكب بالمرور . وكانت الصحراء بعيدا تنتظر أن يمرق علىٍّ رمالها وأن يسير بين النباتات القاتمة الخضرة . كان رأس ظريفة يثقل على صدرها ، ومشطها العاجى يتدلى من شعرها الذى تتخلله « بنسْ » سمراء ، وعلى يطيل الطريق ويقف عند الحديقة ذات الأعمدة الرخامية ثم يسير بحذاء فرع النيل الآخر . وهكذا كان يقتل الوقت .

أما أنا فكنت أتعجل العودة إلى المدينة التى أحس فيها بالحياة ، المدينة التى تؤتى إلى بالناس الذين يغدون ويروحون وبالحركة التى أتوق إليها وبالزروع النضرة التى أحب رؤيتها ، زروع هى مرآة ذاتى .

ورغم ذلك كان يروق لى أن أدير وجهى .

عند عودتنا كانت المدينة قدا استيقظت من نومها ، وأخذ هدير السيارات ينتشر ، وصياح الباعة الجائلين يتجول معهم ، صرت اسمع توسلات الشحاذين وضحكات الجالسين بالمقاهى وصوت

« الفوتوجرافات » الأغن .

أخذ كل ذلك الضجيج يتساقط فوق المدينة مثل ضربات العصى . وأخذ الترام فى بطء رغم صفارات المحصلين الصارخة النفاذة . يحاولون إبعاد المتسكعين فى الشوارع .

كانت هناك ثلاثة جمال ، كل منهم يجر وراءه الآخر . راح صاحبها يكيل لها السباب . وكان هناك أيضاً حمار ذا طوق مزركش . شاهدت أيضا باعة الجرائد وهم يصيحون باللغات الثلاث غدواً ورواحا عبر الشارع وفى كل اتجاه ملوحين بالجريدة فى وجوه الناس التى تمس الأنوف .

كان على يضطر أن يخفف سرعة السيارة . شاهدت امرأة تحمل كرنبة فوق رأسها فكانت كمن يلبس قبعه فوق رأسه ، وشاهدت اخرى وهى تطلب الإحسان مستندة إلى أحد الجدران .

كان الذى يرتدون ملابس جديدة كأنهم يرتدون زياً موحداً . كنت أهفوا إلى الحديث مع الأطفال الذين يتركون بصمات أصابعهم على زجاج واجهات المحال ... والذين يلعبون بالكرة الشراب عبر الحوارى وبين الأرصفة رأيت آخرين يقفزون فوق عربة « حنطور » ، كانوا يتجمعون ويكثرون فجأة كالشياطين دون أن يعبأوا بتهديدات الباعة ، يسخرون منهم ويضحكون .

كان الأعمى يشق طريقه وسط الزحام بأعجوبة دون أن ينقلب على ظهره ، متجهاً إلى أحد الكراسى العرجاء ليجلس فى الظل بجوار أحد الجدران المتهدمة .

❁❁❁

وحين كنا فى طريق العودة إلى المنزل . بدت السماء صحوة ذات ألوان مختلفه .

حين عدنا وجدنا المنزل خاوياً بمردوك لم يعد ينبح . ورغم هذا أخشى مداعبته . كان السكون يخيم بالمنزل خصوصاً حول حجرة والداتى التى مضى على وفاتها عشرة اعوام ! وكان الوشاح الأسود فوق بابها يباغتنى على الدوام !

أماه أيتها الغائبة! كم مرة حملتك فوق درج السلم ؟ ! ساعتها كنت أصعد بصعوبة ، كنت ثقيلة فى ذراعىّ أماه ! أيتها الغائبة ! موتك يخنقنى . كنت أنحت درج السلم نحتاً . ياطفلتى الشاحبة الثقيلة على صدرى ! كان جسدك يتراخى بين ذراعى وكنت تساعدينى وتخفض من وزنك لأرفعك إلى صدرى ... وكان خدك يستند إلى رقبتى ، وشفتاك ...

كانت ظريفة تؤكد أن خدَّ أمىٌ الأبيض لم يكن يتميز عن وجهى . يرتفع صوتها ويقول . « بسرعة ! بسرعة ! أحسن تتأخر . لازم تكونى فى المدرسة قبل الساعة السابعة ..

لم أعرفك غير ميتة يأمى ! ياطفلتى ! أتذكر صورتك التى أحمل مثلها فى حقيبتى ، وعمرك لا يتعد الثانية عشرة ... خائفة أنت !

أريد القوة فى ساعدى كى أحميك « كل حاجة جاهزة فى أودتك . لمعت جزمتك وكويت فستانك ... ممنوع الكسل »

طاردتنى ظريفة بهذه الكلمات وبغيرها :« بسرعة أنطون رجع عشان يروح معاكى »

أنت ثقيلة جداً يأمى بين ذراعى !

العودة الساعة السابعة ... بسرعة ! »

أمسيات الآحاد تلك ....

(٤)

ذات صباح ، انفتح باب الفصل . فتحته الأخت التى كانت تجلس بجواره . تحدثت وشعرها المكوى يحيط بوجهها ويهتز وبعدها وجدتبى جفأة أجلس فى استرخاء بحجرة الاستقبال ! ثم طلبت قفازى الأبيض ، فما كان ينبغى أن تقابل أحدا بدون قفاز .

أخذت الزميلات يتهامسن ، كان فضولهن يضفى حمرة الخجل على وجناتهن . سألت جوزفين : « عاوزينك ليه ؟ » سعاد : « يمكن عند كو فى البيت حد مريض ؟ » تضيف ! « ويمكن حد مات ؟ ! » وتضع وجهها فى كفيها .

لكن والدى وإخوتى كانوا جميعا فى صحة جيدة ، لم يشخ غير ظريفة . لكنها لو فرض أنها توفيت أو أصيبت بمكروه لما أسرعوا ليخبرونى ولانتظروا إلى يوم الأحد .

وعندما أمسكت مقبض الباب لأهم بالخروج ، قالت جوزفين :« فرصة سعيدة » وكررتها فى تحدٍ للمدرسة التى كانت تنشد الصمت .

يزداد الممر طولا مع المسير وصرت لا أسأل نفسى عن السبب .

وقفت أحدى المشرفات تحت ساعة الحائط الكبيرة وفى يدها جرس المدرسة النحاس لتعلن انتهاء الدرس فى الوقت المحدد . تراقب عقرب الساعات وهو يتجه إلى الثانية عشرة . وكان هذا شرف لا تناله إلا التى تتميز بالرأفة . وحينما رأتنى سألت : « فيه إيه النهاردة فى صالة الاستقبال »

لم اكن أعرف إجابة للسؤال ظللت أسير فى الطرقة الطويلة بمقدورى أن أحدد مسارها . لذا بدأ القلق يروادنى .

فى حجرة الاستقبال جلس أخى أنطون فى كرسى طويل . كان وقورا فى مظهره معتزا بنفسه كمن حصل على وسام الشرف . كلما يضع يديه على ذراعى الكرسى ، ولم يكلف نفسه قبلة على خد أخته .

- « أنا جاى آخدك . هترجعى البيت . والادارة هنا عرفت إنك هتتجوزى . إحنا هنجوزك ! »

كنت أنتظر وأتوقع هذه العبارة القريبة إلى نفسى البعيدة عن ذهنى فى الوقت نفسه . وكلما كنت أعيش معناها كانت تلك العبارة تصير أقل غموضاً ، لكن الالتحام بها أضحى مفاجأة تشل أفكارى فترة من الوقت .

قال أنطون دون أن يتحرك من مكانه : « لازم أروح أشوف مصالحنا »

وكانت المشرفات تبتسمن فى دعة وهدوء ، ابتسامة العجائز اللاتى لا يرجعن إلى بيوتهن إلا أيام الأعياد . ولم تكن عبارة أخى تسرى فى اغوار ذاتى حتى أخذت زميلاتى فى توجيه أسئلة كثيرة أخذت تطن فى أذنى : - صحيح ؟ مش كده هتتجوزى ؟

- هتتجوزى ؟

- العريس عنده كم سنة ؟

- شكله إيه ؟

- وأنتى بتحبية ؟

كانت تلك تساؤلات ليلى الهادئة . وكنت أجيبها دون أن أدرى ما أقول. ضوضاء غريبة تتابع من أعماق مغارات مظلمة .

- « كنت أعرفه من مدة طويلة ، بس فى السر . أيوه شكله جميل ... وأنا مبسوطة ! كان بيقف بالساعات عشان يشوفنى و أنا ماشية . »

ليست هذه هى الحقيقة ، كنت استمع إلى صوتى ، أخدع نفسى كما أخدع زميلاتى وأردد الكلمات : « أيوه هكون مبسوطة ! »

وبدأ معنى الكلمة المشوش يتحدد إطاره فى

فمي وصنعت لحبيبى وجها وذراعين . لكن المخاوف كانت تتساقط بينهما كالحصباء الملساء حين تتساقط بين الفين : « أويه ... هكون مبسوطة قوى ! »

ألا يمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟ إن أخوتى وقبلهم والدى يحبون مصلحتى . إنهم يحبوننى ومن العار أن أظن أن والدى أساء الاختيار . لهذا سأحب الرجل الذى لا بد وأنه أحبنى قبل أن يتقدم للزواج منى .

كم من الليالى تحيط بها الستائر المنشاة ! وكم من صحوة خاطفة مثل خطفة الإغتصاب والاقتلاع ! ياله من تجنّ وجوْر وظلم إن لم أكن أقوى الحقيقة !

كان صوتى يهدهدنا أنا وصاحباتى اللائى شرعن فى ربط الحقائب ، أخذت الأيادى ترفع الأغطية وترتب أكواماً بيضاء من الملابس فى قيعان الحقائب . وكانت رائحة الملابس البيضاء والصابون تطغى على كل شيء.

وقالت الخادمة : « متنسيش الخمار والقفاز الأبيض دول هينفعوا بنتك فى المستقبل . »

وتجسد معنى هذه العبارة فجأة أمامى كالانتفاضة المفاجئة أحسست بقدمى يتسمران مكانهما فجأة ، أخذت أنظر إلى الخادمةَ فى تحد وجرأة : .

ذات يوم ، سوف أحمى ابنتى ، سوف احميها يوم ألقاها . سأحميها من الظلم الذى يخنقنى . وظللت أنظر إليها حتى أشاحت بوجهها .

وقالت سعاد : « الشنط بتاعتك جاهزة » ثم أدارت المفتاح فى القفل الصدّىءً .

أماجوزفين فلَفت ذراعيها حول خصرى وقالت : « هتسيبنى ؟ ! »

وأخيرا إستأذنت كل من سعاد وليلى وكذلك عايدة وجوزفين لتوصيل حقائبى إلى الباب . كُنَّ يسرن حولى ولم تترك جوزفين ذراعى .

كانت صاحباتى هى الذكريات الوحيدة اللاتى خلدن فى ذهنى دون سائر الذكريات ، أحسست بجفاف حلقى حينما أدركت أنهن أصبحن فى عداد الذكريات .

وقالت الرئيسة لأخى الذى تعجَّل خروجى : « ياعينى ، المسكينة متأثرة قوى » .

فرد أخى قائلا : « مفهوم ... إحنا دايما نحب بيتنا قوى ، بيتنا الغالى علينا ! ... »

٥٥٥

وفى طريق العودة بالسيارة ، أخبرنى أنطون باختصار عما يدور فى المنزل .

كانت الأحوال قد ساءت . وكان غياب والدى عن المنزل سببا فى عدم الحضور إلى المدرسة لعدة أسابيع من أجل اصطحابى لقضاء عطلة الاسبوع وسط العائلة .

والآن بات من الضرورى التعجيل بزواجى قبل أن يعرف الناس حقيقة وضع الأسرة المالى . كما صار من اللازم أن ينبع ما يمكن أن نبيعه من أجل سداد الديون والاعداد للزواج . وذلك فيصير إتمام الزواج أمرا مستحيلا .

وأضاف يقول . « بس إحنا لقينا شريك وهنكون المقابلة بكره اقريب خالص . »

وبامنزل كان كل شىء فى غير مكانه . كان المدخل والصالون الكبير يكتظان بالأثاث ، والدى يذهب ويجيىء وهو يحرك يديه فى عصبية : « خلّوه فى الصالون الكبير »

كان يلقى اوامره هنا وهناك فى كل اتجاه : أمر السائق أن ينزل الصوان مع عبده ، والطباخ ومساعده أن يسحب البيانو القديم ، كما أصدر أوامره إلى البواب الذى نجح فى مطاردة النوم الجاثم على رأسه وظل يتأمل ما يجرى حوله مستندا إلى الحائط .

وهكذا أخذت الأمور تزداد وضوحا وصرت أفهم ما يدور حولى : كان لا بد أن يخُفوا حقيقة الموقف المالى المتدهور .

أخذوا يخُرجون أثاث الحجرات التى لا يدخلها الزوار واحتفظوا بالصالون المذهب والسجاد الفاخر .

وكانوا كذلك سيتخلصون منى لأنى كنت عبا مكلفا لابد من الاسراع فى التخلص منه .

وكان ضرورى إنقاذ ماء الوجه .

المنزل سيكتظ بالزوار وستقام الولائم . سيظل بيتنا « مفتوح » وهذه هى الطريقة التى يكسب المرء بها احترام الآخرين .

وبهذا الأسلوب كان يمكن للمرء أن يركب الموجة وأن يسير مع التيار فيعقد الصفقات الجديدة ، وبهذا الأسلوب أيضا كان للمنزل الكبير الذى بدأت تعلو واجهته سحابات التراب ، كان له أن يظل على وقاره ، ليوهم بالغنى والبحبوحة .

حاولت أن أصل إلى والدى بين الكراسى والمناضد ، « الكراكيب » التى كانت عربات « الكارو » تستعد لحملها . كان ساعتها فظا بصوته وإصبعه المفتول التى أخذ يشير إلى الأشياء .

وحينما رآنى قال قبل أن أفاتحه فى الأمر : « هو إننى هنا ؟ آه ! » ثم استطرد فى أعطاء أوامره : « لا لا ياظريفة ، ياولية إنتى يامخبولة ! أنا قلت قبل كده إن إحنا هنبيع عفش سامية كله ! »

وكانت ظريفة هى الأخرى تبذل جهدا كبيرا . كان إخلاصها بلا حدود ، وظلت فى خدمة الاسرة . كانت عازمة على أن تبقى فى خدمتها حتى ولو لم تتقاض راتبها فهى سترضى بالخدمة لقاء اللقمة التى تأكلها .

حاولت الاقتراب من والدى لأحدثه عما أخبرنى به أنطون فقال :

- « تكلمينى ؟ تكلمينى عن إيه ؟ إنتى شايفانى مشغول ، أنطون قالك كل حاجة . مش كده ؟ بكره عندنا ميعاد فى البيت ! »

ثم أخرج من جيبه قلماً وأعطانيه وقال : « بدل ما تسألى ، إعملى حاجة تنفع ، أطلبى ورقة من ظريفة واعملى قائمة بالعفش » وكرر الطلب مرة أخرى .

كان من الضرورى أن أتكلم معه عما أريد لأن قبول ماعزمت الأسرة القيام به بدون علمى أمر صعب على النفس . كنت أضغط على الخروف مستعطفة إياه كى يحس بوحدتى .

لكنه لو كان يحبنى بالفعل لتأثر من نبرة صوتى والكلمات تخرج من حلقى . كنت أقف بجواره ولا تعلو قامتى قامته واضعة يدى على كتفه . كان رده أن استدار نحوى بالفعل لتأثر من نبرة صوتى الكلمات تخرجن حلقى. كنت أقف بجاوره ولا تعلو قامتى قامته واضعة يدى على كتفه.

كان رده أن استدار نحوى وتناول زهرته من البللور من فوق المنضدة المستديرة ونادى ظريفة :

« الزهرية دى ياظريفة خسارة تنباع. دى منظرها جميل فوق الترابيزة الرخام ».

- « بابا ... بابا !»

لكنه غضب هذه المرة. كنت بنتا لحوحة جاحدة لأننى ضايقته وأزعجته وصلت مضايقتى لاخوتى إلى درجة لا تطاق.

تكتموا الموعد عنى لأنى لم أكن سوى فتاة ، لكنى صرت ألح وألح فازداد الموقف صعوبة . صممت على أن أتصيده لحظة بمفرده. وفجأة وجدتنى أدفع ظريفة حينما ألحت علىّ كى أصعد إلى حجرتى حتى لا يغضب والدى أمسكت بذراعه وعزمت على عدم التراجع فقال : « ماشى كويس .ياالله فى الصالون اللى جنبنا ، خمس دقائق بس ... همه خمس دقائق . »

وفتح الباب الزجاجى ودخلت وراءه الصالون . كانت الحجرة خضراء اللون ، فوق جدرانها صور العائلة . أخرج منديلة ومسح العرق ثم فتح فمه فى دهشة واضحة . كان يريد أن يتخلص من ذلك الإحاح الذى أحسست بعدم جدواه فانهارت كل آمالى فى راحة يدى .

كنت على يقين حينما دخلت الصالون أنه سيخرج بعد لحظات وكأنه شيئا لم يكن ، وأن اللقاء سيتم فى اليوم التالى وأنى سوف أتزوج الرجل الذى اختاره لى . قال منفعلا :

- « عايزه تسألينى عن إيه ؟ »

- » أنطون قال لى إنى هتجوز ، ودى مفاجأة لى »

- « ده شىء مش عايز رد منك . وكلام أنطون صح . عايزه حاجة تانى ؟ »

- « مش هو ده المقصود يابابا »

إمّال إيه المقصود ؟ » ثم أقترب من الباب ووضع يده على الأكرة

- « أنا معرفش الراجل ده ! »

- « عشان كده فيه مقابلة معاه بكرة » . كان صوته جافاً . ثم أضاف يقول وهو يفتح الباب : « إنتى مش جميلة قوى ، والحالة بتسوء ولازم تعرفى كده كويس . بعد كده مش هتلاقى عريس ، وهنشيلك فوق إيدينا ! ....» ثم أضاف قائلا : إنه ليس كأخته على الاطلاق ، أخته أم ثريا ، وأنه يعرف كيف يدير شئون منزله وأن خنزيرا واحدا لا يغيب عنه . وقال أيضاً : « بكرة هتكون عمتك عندنا . دايما تزور أى بيت لما يزوره عريس . ونحب دايما أن الحال يقف عشان « تحلقٌ » على العريس لبنتها ثريا لكن كل شيء هيتم عندنا ... أخترت لك راجل عظيم ، هتتجوزيه . وأقسم إنك هتتجوزيه وهتشوفى ! »

قضى الأمر . وخرجنا من الصالون وانشغل والدى بالعفش أما أنا فصعدت إلى حجرتى وقضيت ليلتى جالسة على السرير .

ooo

ومع اشراقة اليوم التالى ، كان المنزل قد استعاد هدوءه ، وأخذت ظريفة تحكى لى كل ما تعرفه عن الرجل وهى معى فى الحمام تدعك ظهرى وتصب الماء الحار على جسدى من إناء زجاجى معطر .

الرجل قادم من الريف ، مدير مزرعة كبيرة ، فى الخامسة والأربعين من عمره . رجل ناضج فى سن الزواج . لقد تزوج والدى فى الخامسة والأربعين هو الآخر ، وكانت أمى فى الخامسة عشرة « زيِّك ياسامية » وقالت ظريفة فى تأثير بالغ : « ياريتها كانت معانا النهارده ياسامية ! بكره جاى خطيبك عشان تعْجبيه ! »

كان جبينها الأسمر يأتى على جسدى ، غاصت أصابعها المجعدة فى الماء لتزيل الصابون بالأسى وأنا أتخيل أنى سوف أعيش بدونها .

ثم فجأة شعرت بالهلع حين تصورت أنى سأعيش بدونها .

كان جفاف لسانها يخفى وراءه حنانا وعطفاً ورقة . أحب يدها التى دعكتنى وصففت شعرى حينما كنت صغيرة

- « أنا خايفة ياظريفة !

- « خايفة ؟ خايفة من إيه ؟ أحسن حاجة أن البنت يجيلها عريس مش كده ؟ يعنىّ لى إيه اللى أنا فاكراه ؟ مفيش غير سيرة الناس . متكونيش عبيطة ! هتكونى ست بيت عندها صبيان ! ربنا يبارك فيكى زى ما بارك فى أمك المسكينة »

ولم تكن ظريفة تدرك معنى مخاوفى . وأنت يا أمى البعيدة الكسيرة الجناح، أين أنت ؟ هل كنت تحبين زوجك ؟ وهل أحببتيه حقا من قلبك ؟

وجففت ظريفة جسمى بفوطة . وحينما دخلت حجرتى تركتنى ثم عادت وفوق ذراعيها فساتين كثيرة ألقتها فوق السرير ثم قالت : « كلهم على قدك ، أبوكى بيقول اختارى اللى يعجبك »

كانت جميع الفساتين فى نظرى أسمالا بالية باهته متربة وأخذت ظريفة تتأملنى وتقول : « أحسن فستان هو ده ، ده لايق عليكى . أنا كنت عارفة كدة . أصله مطرز وجميل . أنا هجيب لك الفطار على ما تلبيسه بسرعة أحسن المعاد الساعة الرابعة وأبوكى بيقولك جهزى نفسك »

ومضى يومها ببطىء ، كان لابد من التذرع بالصبر والانتظار حتى ينتهى كل شىء ، فالسوء لا يمكث غير لحظة ، لكن البلاء حينما يقع لا تجد له علامة حتى يغرق كل شىء . كان لا بد من الصبر والتصابر حتى النهاية ، كان لا بد من بذل الصبر والجهد .

أخذوا ينفضون الغبار عن الأثاث ثم قاموا باعداد الطعام . وقامت ظريفة بزمْ الفستان حول وسطى الرفيع . وحينما حانت الساعة الخامسة دعتنى إلى نزول السلم .

كانت أصواتهم فى الصالون ترد إلى مسامعى من خلال الباب . كان يخيل إلى أنهم لم يتحدثوا لا عن المهر ولا عن صفاتى .

تعرفت على صوت عمتى وصوت والدى الجهورى وكذلك تعرفت على صوت الست رشيدة أخت زوجى !

وعرفت كذلك ذاك المجهول المتحجر الذى لم يعرف الحنان .

قالت ظريفة التى على دراية بكل شىء : « إستنىّ » ثم أوقفتنى قبل أن أدخل ورسمت على جبينى إشارة الصليب . تمسك قدحا من الفخار مملوءً بالبخور . دارت خمس مرات حولى وهى تردد كلمات غريبة وحينما فرغت من ذلك قالت : « عشان يكون بختك حلو ، يارب تعجيبه هو وأخته وتنتهى المسألة على خير ! »

وبعد ذلك اصطحبتنى من كتفى ثم أدخلتنى الصالون الذى انفتح بسهولة .

❂❂❂

كانوا جالسين فى دائرة . وجدتنى فى الصالون أمام جبين منكس يحيط به منديل معقود فوق الرقبة ويغّطى الأذنين كانت عينه كعين العنكبوت ، حريصة على أن تجردنى من ملابسى . ولكم وددت أن أرفع يدىً لأحتمى وراءهما

– « قربىّ ! قربىّ ! » قالت أخته وهى تنظر بعينيهاالشبيهة بعين الفأر . لن أفلت من نظراتها على الاطلاق ، ولن أفلت كذلك من فمها المكرمش.

وحين تقدمت ، قدمنى والدى لها قائلا : دى بنتى سامية ...– ياسامية دى حبيبتنا الغالية الست رشيدة .» ساعتها تمزق وجهها إلى ألف كسرة وكسرة حتى يعبر عن ابتسامة .

ولم انطق بكلمة فقال والدى : « البنات بتتكسف ! »

هنا علا صوت عمتى : « دى علامة التعليم . دى بنتى « ثريا » مثلا ، الواحدة متعرفش لون عينيها دايما عينيها فى الارض . دى ملاك ! بنت بصحيح ! بنتى ثريا ! »

مددت يدى إلى الست رشيدة التى جذبت يدى بشدة فاضطررت إلى الإنحناء وقبلت جبينها .

رفعت صوتها وقالت : « بص يابطرس ، حلوة إزاى » وحتى تلك اللحظة لم أكن أريد رؤية الرجل الذى كان جالساً ورائى .

إذن إسمه بطرس وقد يختف عن الجميع فمرت بقلبى نسمة أمل .

قبلت عمتى وسألتها فى همس عن أخبار ثريا فقالت ، بصوت مرتفع سمعه الجميع : « بتشتغل إبرة دلوقتى عجايب ! آه ثريا ست بيت ممتازة مفيش زيها فى الزمن ده ! ياسلام لما تقعد على البيانو ، الواحدة تحس إنها قاعدة فى الجنة ! مش كده ياأخويا ؟

وابتسمت عمتى للست رشيدة ولوالدى ابتسامة عريضة ، لكنه أشاح بوجهه عنها دون أن يرد بكلمة . وكانت قبلة عمتى على خدى فاترة خالية من الدفء .

قبلت جميع أخوتى الذين كانوا يتعجلون نهاية اليوم فى الوقت الذى كانوا يعبرون فيه عن اسفهم لفراقى وثنائهم على حظ بطرس .

وكان أخى الاكبر جرجس يتحدث مع الرجل . كانت إصواتهما متداخلة ، كان كل منهما ينظر تحت قدميه وكنت لا أزال أدور لتحية الجالسين . وبعد أن قدمت التحية لجرجس أخذت أحملق فى الرجل .

كان صغير القدم ، ساقاه يجاوران ساقى أخى . تفوح رائحة الورنيش من حذائه الأصغر . مددت إليه يدى التى لم تكن يدى . كانت يد دمية خاوية باردة ، لكن راحة يده كانت سخيمة رطيبة . أحسست ساعتها أنه يبذل جهدا فى الوقوف ، فقال والدى : « خليك قاعد ، خليك قاعد يابيه ! »

رأيت كرشه وسلسلة ساعته التى تتدلى من جيبه متجهة إلى جيبه الآخر . وكانت يده الأخرى تعبث بمسبحة من الكهرمان . أدهشنى وجهه حين رأيته لأول مرة ، أدهشنى بأنفه الطويلة التائه بين وجنتيه المكتنزتين وبعينيه الضيقتين مثل عيون الفيران الثاقبة النظرة والتى يعلوهما حاجبان مقوسان أسمران

أخذت الهمسات تتناثر فى كل الأنحاء حينما قال والدى : « سامية ياحبيبتى ، مرى علينا بالجاتوه ! أخذت الأطباق وذهبت من واحد إلى آخر . كنت أحس بأعين العنكبوت والفيران تتعقبنى .

وأخيرا جلست على الكرسى الخالى بين عمتى والست رشيدة التى أخذ والدى يحكى لها عن أدق أسراره : « أمها المسكينة ماتت صغيرة . اضطريت أباشر بنفسى كل حاجة نقصاها » . وأومأت الست رشيدة برأسها موافقة والدى عندما قال : « صحتها مفيش فيها كلام . تمام . جامدة زى الحديد . مش هتخلف إلاّ صبيان . بنتى عفيةْ ، بصىّ لها كويسّ ، شوفى ... إيه ياسامية ، سامية ياأمورة ! إفتحى الشباك . الست رشيدة حرّانه »

قمت وتوجهت إلى النافذة البعيدة . كنت أعرفُ ما يقصدونه . كانوا ينظرون إلى نظرات فاحصة . قالت رشيدة التى أرادت أن تشد نظر أخيها « شايف يابطرس رايحه تبّصْ من الشباك ! » كانوا يتأملوننى فى الحقيقة . لم اكن عرجاء ولا دميمة ولقد همست عمتى فى أذن رشيدة : « مش وحشة بالتأكيد ! مش كده ؟ » وأخذ صبر إخوتى ينفد .

شرعوا يتحدثون عن المحاصيل وعن دودة القطن ، وكذلك عن ارتفاع الاسعار . كانوا يتنقلون فوق الكراسى كما حدثنى بطرس حينذاك عن ذكرياتى فى المدرسة كنت مضطرة أن أمتدح تلك الذكريات. صرت أوثر الكذب الذى بنيت عليه بيوتهم وقلوبهم.

لقد ظلوا يستميلونني حتى تأثرت بهم الآن وقد رأتني الست رشيدة كما رآني أخوها بطرس وسمعا صوتي كذلك، صار بإمكانها أن يرحلا. قالت رشيدة آنذاك:

«أظن يابطرس إحنا إتأخرنا واسمحوا لنا ياجماعة نمشي »
ونهض الجميع وضغطت الست رشيدة على يد والدى لتؤكد له أنها سندٌ يمكن أن يُعتمد عليه فى حل مشاكله وهكذا كان وداعها وديا.

عند ذلك أحست عمتي أن الموقف أفلت من يدها وشعرت بالضيق لدرجة أنها خرجت دون أن تقبلني وربما تسمعها ابنتها ثريا وهي تندب حظها طوال الليل.

ترى كان عليها أن تبكي وأن تندب حظ من؟

وحين ألقى إليَّ ذاك «البطرس» التحية بصوت منخفض كان عليَّ فى انتظارهما أمام باب السيارة.

وكان ولابد أن تنظر ظريفة من وراء شيش النافذة ثم فركت يديها بعد ذلك من السعادة.

لم يكن هذا اجمل من زواج البنت! «ده يوم الهنا !»

وبعدها بساعة رن جرس التليفون. قالت ظريفة: «ده الست رشيدة ! » كانت تتصل لتخبرنا بموافقة العريس. وبعد أن أعطت السماعة لوالدى هرولت نحوى وأغرقتني بالقبلات

٥٥٥

واستطعت تلك الليلة أن أنام !

وحين أصبح الصباح توقفت خلف نفسى التى جائتنى مسرعة دون أن أناديها. كانت غير نفسى رغم أنها لم تكن غير نفسى إنها تأتينى عادة لتلقانى عندما تصير الأمور صعبة وحين يوشك كل شيء أن ينهار فى داخلي، وحين تخمد الحيوية فى حركاتي ونظراتي.

وفتحت ظريفة الباب وقالت:

«عريسك وأخته الست رشيدة جَم عشان تروحى تتفسحى معاهم»

كنت لازال أشعر بأنى أحتمى بكل شىء. كانت الأصوات تأتى من بعيد، تصل إلى مسامعى لتصطدم بذاتى الثانية: قذائف ترتطم بجدار النسيج. وكانت الضوضاء تخف حدتها قبل أن تصل إلى.

لقد صرت غائبة عن نفسى ورغم ذلك كنت أترقب الأمور كانت ظريفة تقولى لى: إفرقى شعرك من تحت» «شدى الحزام على وسطك» تتكلم والبسمة على شفتيها: «البنت المكشرة تخلى جوزها يجز على سنانه»، «خلى كلامك قليل، البنت اللى تتكلم كثير فى قلبها قط أسود بتحاول تخبيه ! »

وكنت أعيد تصفيف شعرى لأجعل الفرق أسفل رأسى، أزم حزامى معبرة بإيماءة من رأسى عن موافقتى على ماتقول.

لم أكن غير حركات آليه. كنت أحس بالهدوء وراحة البال وكنت أتمنى أن يستمر الحال على ذاك النحو.

وعند العصر أتت ظريفة فى طلبى لأن رشيدة وأخاها كانا فى انتظارى عند الباب. كانا قد استأجرا «حنطورا» من أجل النزهة.

لم أشعر بالضيق وأنا جالسة بين الست رشيدة وبطرس. كانت كلماتهما تعدو وتروح أمامى، تلتقى أمام وجهى كالأغصان المتعانقة بينما يطرق الحصان أسفلت الشارع بأرجله، وماكادا يسكتان حتى أخذا يمطرانى بوابل من الأسئلة :

– كم عمرك ؟ ( كان عمرى آنذاك ستة عشر عاما )

– هل كنت مريضة فى صغرك ؟

– بالتيفود ؟ بالبارا تيفود؟ وإخوتى ؟

- دول رجاله بصحيح ! عشان كده بابا مطمئن إن محدش هيبيع ثروته بعد وفاته .

- كم يملك من المحلات فى المدينة القديمة ؟

- كم عنده من الخدم ؟

وكنت ارد على اسئلتهم كمن يجرد حساباً لا يعنيه ، أستسلم لأرجحة الحنطور . كان ظهر الحوذى أمامبا مثل ستارة سوداء تحمينا من لسعة الشمس . كنت غائبة أشعر بالامان .

السوط يلهب ظهر الحصان فيركض ، يتفادى السيارات ويسبق الحمير والعجلات فى بعض الأحيان . كان يركض وفوق ظهره سرج وعلى عينيه غطاء يحميه من الذباب . أخذ يركض فى شوارع المدينة والمتنزهات إلى أن وصل عند طريق الأضواء ، وظلت حوافره تطرق الأسفلت طرقا بايقاع منتظم . قالت الست رشيدة : « على كدة باباكى الغالى فى عز من التجارة » - مبسوط خالص ! »

كان السوط يلسع الحصان فيسرع .

- « واجب عليه يدلعك ! وياترى هو عامل لك مفاجأة كويّسه يوم الجواز ؟ وأمك ياترى سابت لكِ دهب ؟ »

- « مش عارفه ! »

« شيٍ ، شيٍ » كانت تلك صيحات الحوذى وهو يلوّح بالسوط ممسكاً باللجام فى يده . كان يرى أن حصانه لا يجيد الصهيل .

وأردفت الست رشيدة تقول : - « واخواتك ناوين يقدموا لكِ إيه فى الجواز ؟

- « معرفشى »

- « العيال دى يضايقوا ! قولى لهم الدهب قيمته ثابتة ودايما حافظ قيمته . وكمان تذكار دايم . ! »

- « إيوه هقول لهم هاتولى دهب ! »

وكان الحوذى لا يزال يحث الحصان على الجرى رغم استجابته لكل إشارة . شمال ، يمين ، أمام ، هدّى .

كان رهن إشارة صاحبه يفعل حسبما يريد .

- « أيوه ياست رشيدة هقول لهم يجيبولى دهب ! »

سوف أطلب ما يريدونه . لم أحس بشىء ، لا بالمرارة ولا بالألم : ثم خفت طرقات الحصان للأسفلت فصاح الحوذى : - « إنتى يناسبك خاتم سولتير »

كان بطرس ينظر إلىّ والبسمة على وجهه وكنت أرد عليه بمثلها . كنت أنظر إليه وفوق ركبته علبة الحلوى المغلقة بورق جميل يحيط به شريط وردى . كنت أعلم أنها من أجلى .

توقف الحوذى تحت شجرة ونزل ثم قدم قطعةً من السكر إلى حصانه قائلا له : « كل ياخويا »

قالت لى الست رشيدة : « أنا هشوفك وإنتى بتقيس الفساتين أنا زى أختك الكبيرة ، ومن دلوقتى قولى لى : يارشيدة بس »

٭٭٭

وأثناء العودة ، كنت أكثر من النوم استسلاما لأرجحة « الحنطور » كانت أشعة الشمس تنفذ من فستانى وتحرق ركبتى . لم تكن الشوارع مزدحمة ، وظل الحصان يسير بايقاع منتظم ، لكننا حينما دخلنا المدينة ، صرت أسمع ضجيجا غير متميز وثرثرات آتية من بعيد . وحينما سألت رشيدة الحوذى عن مصدرها هزكتفيه

كان الشارع معتدلا ثم انكسر تجاه اليسار فجأة فأصبح للضوضاء بُعدٌ غير عادى . الرجال يجرون على الأرصفة . وفجأة وجدنا أنفسنا بين زحام من السيارات والعربات والناس . واضطر الحوذى أن

يجذب عنان الحصان لكن العربة اهتزت مرة واحدة فصرخت رشيدة بعد أن تشبثت بذراعى وقالت : « ياعذراء ، ياعذراء ! يامريم العذراء ! » وتدافع الناس وهرولوا ليعرفوا ما جرى . وأخذ البعض ينظر من النوافذ فى فضول وذعر . ولما كان بطرس لا يعرف كيف يتصرف أخذ يكيل السباب للحوذى الذى صب غضبه هو الآخر على الحصان ، لكن الحصان تسمَّر فى مكانه .

قهر الحصان هدوءه ثم وقف على رجليه الخلفيتين ، وحرك ذيله فجأة محاولا الخروج عن صمته وهدوئه . تسمرت أنا الأخرى وأسندت يدى إلى مقعد الحوذى . كنت أرى رقبة الحصان تطول وعروقها تنتفخ وتصير كالحبال . وأخيرا فقد الحوذى السيطرة عليه .

هاج الناس وتوافدوا من الشوارع الأخرى

– فيه إيه ؟

– يمكن حادثه ؟

– يمكن قتيل ؟

وتلاقت الأسئلة وتشعبت . كان الجسورون يشقون طريقهم بمناكبهم ليستطلعوا ما حدث .

هناك دخان يتصاعد فى آخر الشارع . من أين ياترى ذلك الدخان ؟ نزلتُ من العربة ورشيدة ورائى يتأبطها بطرس . سبقتهما بسرعة لألحق بالناس ، ساعتها زال عنى ذلك الستار الذى يحجبنى عن العالم .

أحسست أن هناك مأساة تطل من بعيد . كنت واثقة من قدرتى على القيام بعمل يدفعنى إلى الأمام . ولم يكن هناك ما يمنعنى فعل ذلك .

صرت أندفع وسط جمهورى يتجاوز الألف . كان علىَّ أن أسير بين الناس . هناك شىء ما بكل تأكيد : شىءلا أعرفه !

وسمعت الناس حولى يتحدثون عن رجل شاهده أحدهم وهو يجرى ورائحة البنزين تفوح من ملابسه . تقدمت إلى الأمام دون أن أسأل أحدا منهم . كان لابد وأن أسرع فقد هجرنى التعب وأصبحت أتنفس بسرعة .

قال واحد من الناس : « ده مجنون ! »

علق آخر : « ده ثورى ! »

الأصوات تملأ سمعى وأنا لا أزال أسير ألتقط تلك الأصوات وأنا مسرعة ، يداى تسابقان خطاى من أجل ألا أصل فى المؤخرة .

– قال أحدهم إن الرجل أشعل النار فى ملابسه وإنه يحترق كالشعلة رغبة فى الخلاص من الحياة

قالت أحدى السيدات : « ده مجنون !.... » « مفيش ملاجىء كثيرة ! ....» رددت أمرأة ثالثة : « الانتحار بالنار بقى كتير ، والمسألة بقت سهلة إن الواحد يضرب نفسه بالنار .»

أحد الأصوات يقاطعها : « ده المسدس ثمنه غالى ! » صوت آخر : « يستاهل ! هيروح النار ! »

ربما كان ذلك الصوت هو صوت رشيدة ....كنت لا أزال أتقدم وسط الزحام فى قيظ الشمس أشق طريقا لنفسى بين السيارات والعجلات الواقفة والزحام .

كان الذى أقدم على الانتحار صغير السن له من الأطفال سبعة ، تركتهم له زوجته التى رحلت عن الدنيا منذ وقت قريب .

أحد الواقفين : « ده رجل جبان ! »

صاح آخر من جديد : « بيحترق زى الشعلة لكن كلماته ضاعت بين هرج الناس .

وكنت لا أزال أسمع وأتقدم فى السير ، أحاول أن اكوّن فى ذهنى صورة لذلك الرجل المجهول الذى أقدم على الانتحار .

- « ده ملهوش شغل ! »

- « ده صايع ! »

- « صايع ، هلفوت مالوش كرامة ! »

كانت الأصوات تعلو ثم تسكت. كلٌ كان عنده ما يقوله . كانوا يقولون إن المدينة صارت نهبا للمتسولين وكانت الكلمات تأتى أحيانا من بعيد ، تتناقلها الأفواه عن أقرب الناس من الرجل : « ده هايج وبيزعق : يشوفوا كلهم ! يسشوفونى وأنا بنحرق ! »

كنت كده ابتعدت عن رشيدة وأخيها . وأخذت أشق طريقى وسط الناس بصعوبة . كان هناك من يبكى بجانبى . وفجأة دفعونى إلى الوراء : « إرجعوا ... إرجعوا » أمرأة مغمى عليها والناس مشغولون بأخبار الحريق .

كان الجمهور يعوق تقدمى ، ورغم ذلك أُردت أن أكون هناك بجوار الرجل الذى يحترق وأن أترك ورائى الذين يبكون .

ما فائدة الدموع لو مات الانسان وحده ؟ ما كان ينبغى أن يموت الرجل بمفرده . صرت أجرى نحوه فى هياج ، أسمع نداءاته التى تصل إلى أعماق وجدانى :

« تعالوا كلكم شوفونى وأنا بموت ! »

كان يريد أن يترك موتهٌ أثراً فى نفوس الناس ، أن يشل حركة المدينة السخيفة ، لكن الموت بات يخمد فى القلوب قبل أن تغرب الشمس . ترى هل كانالرجل لا يفهم ذلك ؟

كنت أريد الأقتراب منه لأحول بينه وبين هذه الفكرة . كان بودى أن أكون آخر من استطاع أن يُفهمه . ساعتها كان بمقدور الموت أن يكون سهلا بالنسبة له .

وهكذا لم يكن أحد يرغب فى تدبر الموت . ومع ذلك أى أمل كان يبقى هناك ؟ لو كانوا يدركون للموت معنى لأقلعوا عن الهزل والسخرية ولما تفشت تلك اللامبالاة التى تتسبب فى ضياع كثير من الناس .

قبل أن أتمكن من الأقتراب من الرجل صاح أحد الواقفين قائلا : « خلاص ، الراجل مات ! » ورغم ذلك كان فى مخيلتى كما لو لم أكن بعيدة عنه . ان جسده يتعرّى ويهوى على الارض مثل كومة من الملابس المحترقة .

حملوا إليه « جرادل » الماء والنساء يولو لن ، وفى النهاية سمعنا هدير سيارة الشرطة يُفسح الطريق . وظل رجالها يصيحون فى الناس حتى وصلوا إليه .

وفجأة أحسست بيد فوق كتفى ، كانت يد رشيدة التى قالت بصوتها الجاف : « قعدنا نلف عليكى فى كل مكان ... نهاية الرحلة غريبة ! كان ... عاوز يحرق نفسه ! أحسن ! هيعيش فى النار على طول ! » وددت أن أعض يدها العظميـة التى أمسكت بذراعى ، لكن بطرس مالبس هو الآخر أن أمسكنى من يدى الثانية ، وهكذا إقتادانى إلى الحنطور .

قادانى إلى ما يسمونه الحياة . وكلما كنت أتقدم بين بطرس ورشيدة كان الجمهور يتفرّق ، وأخذت السيارات تستأنف المسير

اكتشفنا مكان الحوذى الذى كان يشير إلينا بمنديله الأبيض . كان يصيح بأعلى صوته : « أنا هنا ... أناهنا » . وحين اقتربنا منه أخذ يشتكى ويقول : « الحصان عضنى فى يدى بدون سبب مش عارف إيه اللى جرى له إيه إللىّ خلاّه يهيج مرة واحدة . »

جلسنا نحن الثلاثة فى المقعد الخلفى ، ورجعت العربة فى اتجاه المنزل وهى تختصر الطريق . قالت رشيدة أثناءها : « العذراء معانا . كان ممكن تنقلب العربية » ووافقها بطرس بإيماءة من رأسه .

كنت صامتةً منكسة الرأسى ، أسترجع ما حدث للميت . كنت منتحرة مثله . كنت أنا والرجل شبيهين . كان موته المفاجيء وموتى البطيء يرتدان إلى صدرى . وكنت أحنى رأسى لأحيط نفسى بالعناية وأحيطه هو الآخر بالرعاية .

وأخيراً وصلنا إلى المنزل ، منزلنا نحن . وبعد أن نزلت ودعتهما . لم يكن لذلك الودا ع قيمة . وحينما ناولنى بطرس علبة الحلوى ضممتها إلى صدرى وشكرته ، ثم عاد الحصان راكضا .

بعدها سالت دموعى بغزارة فسقطت على الورق الذى يغلف العلبة ملائكة صغار . دخلت الحديقة وصعدت السلم ، فاستقبلتنى ظريفة عند الباب قائلة : « دموع فرحة العروسة زى العسل ! »

# الجــزء الثــانى

## (٥)

حـان يوم الزواج . وصلنا إلى القرية بالقطار . كان الحوذى أبو سليـمـان فى انتظارنا عند المحطة ليـوصلنا إلى المنزل وكنت أرتدى فستانا من الساتان الأبيض .

إختصرنا الطريق حتى نصل بسرعة . تمتد الحقول إلى بعيد فى خطوط مستقيمة ، تتدلى أغصان الأشجار فوق سطح الماء ونسيم عليل يُداعب أطرافها ، . كان بطرس يكثر من توجيه الأسئلة إلى الحوذى .

ينساب الطريق عابرا أحد الكبارى ثم يغرق وسط الحقول حتى يصير شريطاً ترابيا وسط مساحات ممتدة خضراء . صرنا نتقدم حتى اقتربنا من طريق إنعطف وسار بين صفين من أشجار الموز ، ثم إنتهى إلى حصباء تأرجح العربة أثناء المسير وبعدها توقفت العربة بين منزلين متقابلين .

أشار بطرس إلى المنزل الأيسر قائلا :

« ده بيـتنا ! وده المفـتـاح ! إطلعى الدور الثـانى . هعدّى على الموظفين فى المكتب على الماشى وحصلّك »

وقف الموظفون الخمسة أمام الباب فى أنتظارنا كانوا يتهامسون ويفركون أياديهم خجلا وتوقيرا . تقدمت بخطى قصيرة . كان فستاني يُقيدنى ، الطرحة فى ذراعى وصحبة الزهور تحيطُ بمعصمى . حَيّيْتُ الجميع . كان أحدهم ذا شامة ضخمة بجانب إحدى عينيه ، ردوا التحية وبعدها توجهوا إلى بطرس يهنئونه .

وفى الصباح وهبنى القسيس للرجل فى الكنيسة . أخذ يباركنا كما لو كان أحدنا للآخر . كان القسيس سعيدا بموافقتى على الرجل ، وهبنى إياه بكلمات تربط بين الزوجين إلى الأبد . وكان مهتما بى وبكلماته ذات المعانى القيمة التى توثق الروابط بيننا ، أولادنا - ثم تركنا ليؤدى شعائر كنيسة .

وهكذا صرت ملكا للرجل الذى فرضه علّى والدى والذى كان صوته الجاف يصل إلى مسامعى وهو لا يزال عند عتبة الباب أسمعه يسأل الموظفين عن العمل وأحواله وعما يكون قد حدث أثناء غيابه .

كنت أصعد السلم بصعوبة وأنا أتجه إلى باب حجرته وسريره يلتصق فستانى الحريرى بساقى لم يكن على السلم نافذه ، انما كان هناك منور زجاجى قذر .

وفجأة ، سمعت ضحكة طفولية . أحسست أن هناك من يهزنى . تلفّتُ بحثا عن مصدر الصوت ، فوجدت طفلة منحنية عند منعطف السلم . كان لون عينيها من النوع الأسود القاتم . تلبس منديلاً أحمر فوق رأسها ، وقد غطى سمتها البهى على قسمات وجهها : الأنف والخدين والفم . تضحك لتواجدها الذى كان مفاجأة لى . بدا ضحكها جميلا مستساغاً فامتزجت به ضحكاتى أنا الآخرى .

لكن الطفلة ظلت واقفة ، حينما هممت بالذهاب إليها هبطت درجات السلم ولم تعدْ . خرجتْ ومعها ضحكاتنا نحن الإثنين من الباب المفتوح ثم اختفت .

بعد ذلك ، ظهر ضوء القمر وأخذ نوره يعلق بهياكل الأشياء ، فيسهّل علىّ وطء الغياب الذى عزلنى عن الرجل الذى تمدد على السرير بجانبى .

كنت إحيانا أضغط على شفتىّ ، لكن الليل لا يزال يجذبنى بضيائه الضارب إلى الصفرة ، ذلك الضياء الذى يخلع عن قطع الأثاث

عبء النهار . كان الباب المطل على الشرفة ينفتح على ثلاثة نجوم وكانت تلك النجوم قريبة منى أستطيع لمسها واستحضارها فى راحتى لتنقذنى حرارتها من الرعب الذى أخذ يتصبب عرقا ويتنهد ، بعدها صرت نهبا لحركات جعلتنى فى خوف شديد .

حاولت أن أضع فى ذهنى تصوراً للريف الذى يحيط بنا من جميع الأرجاء ، ذلك الريف الذى سأقيم فيه على الدوام . حاولت أن أحبه أثناءالليل الذى كان يأتينى من خلال النوافذ المفتوحة نسبيا . وكان للسماء صفاء غريب رغم الظلام ، صفاء أبانته أشرعة النوافذ المرفوعة لدخول نسمة الهواء .

وكان زنبرك السرير يحدث صوتا ، لكن ذلك لم يشغلنى عن مداومة التفكير فى الليل المُسْتغْرق فى النجوم والقمر .

ومع حلاوة ذلك الليل الذى يتسلل إلى حجرتى ، أحدث السرير صريرا . وتقلب الجسد وتقلب مع تنهدات هتكت السكون . وصرت من جديد أضغط على شفتى حتى خيل إلىّ أن وجهى سوف يتفتت .

لكن غنوة رقيقة كخيوط الحرير خلصتنى من ذلك الغيظ ، عرفت صوت الصغيرة ، انها التى كانت تضحك على درج السلم . كانت تقول : « ياليلى ... ياليلى ! ....» انها الصغيرة التى عثرت عليها على السلم . سرعان ماتخيلتها وهى مستندة إلى جدار المنزل ، غناؤها يعلو ويعلو لكى يتساقط فوق الجدران كالشلال . كان الليل جميلا لهذا تركت الصغيرة فراشها وخرجت تستمتع بجمالها وسحره وأخذت تغنى « ليلى ياليلى ! .... » .

كان صوتها يندى جو الحجرة التى أحرقتها حرارة الشمس ، فتتفتت كلماتها فى الحجرة مثل قطر الندى . فتجعلها واسعة رحبة ، تخرجها من بين الجدران وتحملها إلى سكون الليل الساحر فى الخارج ،فصارت تسبح فى الريف الهادىء الصافى ، هناك بعيداً عن السرير الذى يحدث صريرا مخيفا .

نهض بطرس مستندا إلى كفيه وأخذ يصيح فى ثورة : « يابنت الكلب ! ....يابنت الكلب ! » أنا هعرف إزاى أعلمها تحرم الناس من النوم ! » أبعد الغطاء فى هياج وقفز من السرير قائلا : « أنا هعلّمها ! وهكذا صعق صوته الأغنية التى أحسست فى نبرتها بنوع من اللامبالاة والكيد . وقبل أن ينزل قلت له : « خليّك ، أنا رايحة لها ... مش هتسمع حاجة ! » .

ولما كنت قريبة من النافذة ، فقد أغلقت الشيش وجذبت الستائر وأغلقت جميع النوافذ . ومع ذلك ظلت الأغنية تتسلل إلى الحجرة على هيئة أنفاس تتردد : كانت لا تزال عذبة شجية ، وكان لدىّ إحساس بالنجاح فى حمايتها من خطر كان يتهددها .

وفجأة أطلق بطرس ضحكة عريضة ثم قال : « هية سببت لك قلق إنتى كمان ؟ هدى نفسك ، تعالى لسّه الليل طويل ! »

وألقيت بالليل الحقيقى ونجومه خارج حجرتى ، ألقيته ومعه الاغنية وظللت بالقرب من النافذة .

أخذ بطرس ينادى : تعالى هنا ! هنا !بسرعة إنتى منتظرة إيه ؟» أى شىء كنت أنتظر ؟ المستحيل . ربما كنت أنتظر أن تقوم الساعة . تسمّرت قد ماى . حاولت أن اكسب الوقت فقلت له : « الدنيا ضلمه ومش شايفة حاجة » وكان متعجلا : « بسرعة ! »

وحينما صرت على حافة السرير مترددة ، طوقنى بحركة مفاجئة وأوقعنى بجواره . وأخذ السرير يهتز أكثر واكثر . وعضضت شفتى بشدة أحسست بعدها بطعم الدماء الفاترة تسيل من جانب فمى .

❂❂❂

خرجت من الشرفة صبيحة اليوم التالى لأتأمل جمال الريف المحيط بمنزل صاحب المزرعة . كان مقابلا للمنزل الذى نقيم فيه . ريف ممتد هادىء تجلى واضحا مع إشراقة الصباح .

الرجال يسيرون فى الدروب واحد وراء الآخر حاملين فؤوسهم على الأكتاف ، يتقدمون كشريط رمادى اللون ، تبدو الأشجار مثل كرات خضراء من الورق كأنها أوتاد تقتلعها رياح الصباح ، والشمس تلهو بين الأرض الخضراء ، وتكسو مياه القنوات الساكنة ، تعلق بالكثير من الأحجار ، ولا حاجز يعترض امتداد المشهد حتى تنطبق السماء على الأرض .

كانت حياتى كهذا الريف تمتد أمام عينىّ . ماذا كان بوسعى أن أفعل حيال حياتى الدائمة ؟ كان علىَّ ألاَّ أتململ .

ولسوف تأتى الأمهات ، الواحدة بعد الأخرى ، وقتها سوف تتبدد الهموم والهواجس . كنت فى الوقت نفسه أرتعش مع طيف الطفل القادم بعد ليال . كانت الرغبة فى الموت خلالها تمسخ وجهى .

كثيرا ما قالت جوزفين ونحن فى المدرسة الداخلية : « لازم نأخُذ الأمور زى ما هيةً ! » وكنت اتمنى ذلك . لهذا فتحتُ الحقائب وعلقت الملابس فى الدواليب . كان التراب جاثماً فوق كتبى التى كانت بين مهملات والدتى . نفضت عنها الغبار قبل أن أرتبها فوق الأرفف وبحثت عن مكان للحقائب الفارغة .

وطرق الباب طارق .

وقبل أن أصل إلى الباب لأفتحه ، وجدت فجأة امرأة ومعها فتاة وسط الحجرة . كانت ثيابهما سمراء اللون ، قالت الكبرى : « أنا أم الخير ودى بنت زينب ! ...زى ما كن بنعمل لأخت جوزك الست رشيدة لما كانت مع البيه ، كل يوم هنيجى لكى بالبيض والخضار ...» .

عبرت لها عن شكرى وأخذت السلة . ظلتا متسمرتين تحدقتاَ فى شكلى وملبسى . أحسست برغبة عارمة عندهن فى مصاحبتى كالطفلة . كانتا تريدان تأملى وتحسس بين أياديهن وكانتا تريدان لمس شعرى ونسيج فستانى .

أخذتُ السلة ووضعتها على الأرض قرب المنضدة التى كانت عليها علبة الحلوى . أخذت العلبة ومددتها : « خذوا ، خذوا ، دى عشانكو ، كلوا الحلاوة دى ! ...» .

ترددنا أول الأمر تناولناها بعد أن قالتا : « لأ . لأ ، دى عشانك إنتى والبيه الله يبارك فيكى ويطول عمرك! » .

اضطررْتُ أن أضع الحلوى فى أياديهن ، وظلتّاً ترددن عبارات الإمتنان والشكر مع ضحكات خجولة ثم وضعتا الحلوى فى جيوبهن وشرعتا فى اللعب بحصيات كانت معهن .

همست أم الخير فى أذن إبنتها بكلمات قليلة وجذبت قميصها الذى تلبسه تحت ردائها ثم فكّت منه « دبُّوس مشبك فيه خرزة الجسد » وقالت : « خُدِى دى عشانك تحفظك من العين ، عشانك وعشان البيه » .

آنذاك ، كان علىّ الدور فى الاحساس بالخجل . ثم أضافت تقول : « إربعين سنة وأنا لابساه النهارده بقيت عجوزة . محدش هيحسدنى . إنتى غيرى ! » .

ترك الدبوس الصدىء ، أثره فى نسيج القميص ، فأخذت تزيل أثر الصدأ باظفرها ، وقامت بمساعدتى فى تثبيت الدبوس فوق بلوزتى ثم ، أضافت وهى تتنهد إشفاقا على : « إيوه ، باين أوى ، عشان تخزى عين الحسود »

ألقيت بنفسى بين ذراعيها تعبيرا عن امتنانى لذلك ، فضمتنى أم الخير هى الآخرى إلى صدرها !

كان ثوبها يبعث رائحة التراب والحناء . أحسست بارتياح كبير وكلما تذكرت هذه اللحظات الشبيهة بالقناطر التى تصل بين البشر ، كنت أقول فى نفسى ، لم أخسر شيئا على وجه التقريب .

قالت أم الخير : « هيه ! بقيتى مبسوطة ! ... أنستْ إلىَّ وأخذت تربت على كتفى ربتات ود وحنان ووقفت تنتظر أن أعبر لها عن ثقتى بها وهى تضع يدها فوق خصرها .

كانت زينب توافق على أفعال أمها بإماءات رأسها . وبعد برهة وقع نظرها على مفرش السرير الحريرى الوردى . قربت منه ببطء فى دهشة وفضول وقالت : « آدى إنتى بقيتى امرأة ....»

كلن ولا بد أن اتحدث إليها وأن أشعرها ببهجتى المصطنعة والمتكلفة مثلما كنت أفعل مع الزميلات فى المدرسة .

بدأت زينب تمسح يديها فى طرف ثوبها لتنظفها من الغبار ثم أخذت تتحسس مفرش السرير الأملس . انها تقشعر حتى قمة رأسها . قلت لها :ـ

– « كان سنِّى إتناشر سنة لما شافنى أول مرة وطلب إيدى من بابا . كنت بروح المدرسة ...»

– « فى المدرسة ...؟ على كده إنتى بتعرفى تكتبى وتقرى زى الموظفين ؟ » قالت أم الخير .

– أردفت أقول : « إيوه »

– « مش قصدى أحرجك لكن إيه الفايدة ؟ »

وسألت نفسى عن ذلك أيضاً ، فلم أكن أعرف للسؤال إجابة . ثم أضفت أقول : « كان بيكتب لى كل أسبوع وأيام الأعياد. وكان بيبعت لى الورد ! »

ظللت أتحدث وأتحدث . كنت أحاول أنه أنسى بطرس .

لم يعجب مفرش السرير زينب فخطت نحوى خطوات . كنت أصف قصة زواجى وقنوط والدى حينما كان يحس باقتراب زفافى إلى بيت الزوجية .

كنت أكذب أقول كلاما مؤثرا : لقد استودع - والدى وإخوتى الخمسة - عزيزتهم صهرهم بطرس .

إقتربت أم الخير وزينب منى ، وهما تحملقان فىَّ كانت أكاذيبى تُغيِّر وجه بطرس المكتنز ، تشع البريق فى عينيه القاسيتين ، تعكر جسمه الثقيل القائم على قدمين صغيرين متجاورين .

هناك كانت صورة شخص آخر ، صورة تشغل فكرى . شخص لا أعرفه . كانت تلك الصورة فى أرجاء الحجرة ، بدأت تلك الصورة تفتح الباب فجأة وتقول : « النسوان هنا لسَّه ! ياللى اطلعوا بره ! تعبْتوا الست سامية ! ياللى روحوا بيوتكم ! ...»

كانتا كفتاتين ارتكبتا عملا شائنا ، رفعتا ثيابهن ثم زاغتا عن العيون دون أن تلقيا إلىَّ بالتحية وقد أستولى عليهن الخوف . نظرت إلى بطرس . كانت الكلمات تجف فى حلقى . لمح الخرزة الزرقاء على قميصى .

❂❂❂

ظل أول يوم من زواجى عالقا ُى ذهنى - وأذكر أن الحوذى أبا سليمان وصل بعد ذلك بقليل . ألقى إلى التحية فى وقار ثم دخل الحجر المجاورة .

قال بطرس : « هو كمان بيقوم بالطبخ . وعارف مزاجى كويِّس فى الأكل . عليكى تسيبه يشتغل » وأضاف قائلا : « أنا جاى بدرى مخصوص ! ... مش كل يوم الواحد بيتجوز ! »

جلس على الأريكة الخضراء ثم أخرج مسبحة من الأحجار الكريمة من جيبه ، وأخذ يعبث بحباتها بين أصابعه . كانت قلنوسته الحمراء إلى الخلف ، تبرز جبدته الذى عليه تتلألأ حبات العرق . اتكأعلى الأريكه بكل ثقله ، وكعبه على الأرض وطرفا قدميه مرفوعين .

اما يده اليسرى فلا تزال تعبث بحبات المسبحة الملساء ، وكان كلما فرغ من التسبيح مرة ، يعاود التسبيح من جديد .

وفجأة قال : « مقدرتش » أعرف اسم البنت ! »

- « البنت ؟ بنت مين ؟ »

- « البنت اللى قعدت تغنى تحت الشباك الليلة اللى فاتت لكن هيقولوا لىّ إسمها . هدوّر فى البلد واعرفها »

طلبت منه إلا يفكر فى ذلك لأن الأمر لم يكن يستحق كل ذلك الضيق . علينا فقط أن نغلق النوافذ ، فرد قائلا :

- « نقفل الشبابيك ! أنا هتجنن ، العصريهّ دى هدوّر فى البلد عليها ، وأقابل أبوها وأخليه يربيها . »

- « أضمن لك إنها مش هتعمل كده تانى ! »

وأكدت عليه مرة ثانية لكنه كان مصمماً فقال : « على أي حال دى حاجات تخصنى محدش يتدخل فيها ! »

كان أبو سليمان قد خلع سترة عمله كحوذى ولبس بدلا منها مريلة زرقاء فوق صدره . كانت عيناه رماديتين لا يتفقان مع سمرة وجهه البارز القسمات . أحضر طبق الأرز وعاد بعدها بقطع لحم كبيرة أخذ بطرس يلتهمها فى نهم مصدراً صوتاً منفراً . كانت شفتاه تلمعان من الدسم ، وظل أبو سليمان يحضر المزيد والمزيد من الطعام وبطرس يطلب الملح والتوابل . وبعد ذلك أمره أن يصب الماء على يديه من إبريق كان على المائدة . وبعدها ناداه ليتناول الفوطة التى سقطت من فوق ركبته .

حانت ساعة القيلولة راح الزمان يسير أبو سليمان لا يزال واقفا على أصابع قدميه حتى لا يحدث أدنى صوت . قام باغلاق النوافذ ، هناك مؤشرات أخرى تبعث إلى النعاس الذى يستولى على القرى والمدن حيث كان أصحاب النوافد الخشبية يغلقونها بينما يكتفى الآخرون باغلاق جفونهم الخامدة .

كان النعاس يعلق برقاب العباد ، يثنيها إلى الأمام وبعدها يجسم فوق الأكتاف ، ساعتها يمنح الانسان الانتفاضة التى تجعله ينهض ثم يسترخى فى مرقده القريب :

كان بطرس يُلح بصوت طرىّ لأرقد بجانبه ، وكنت من جانبى أقاوم الخمول ، أنكمشت حتى لا ألمسه ، وفور أن خرجتْ من أعماقه أول تشخيرة ، استرسل يغط فى نوم عميق . ، لاننى لم أجرؤعلى النهوض من السرير لهذا انقلبت على ظهرى لأتشاغل بالنظر فى أنحاء الحجرة .

كانت الحجرة تتقلب فى ضوء خافت وأزهار خبازية ، تدور لتمزج أول يوم من حياتى الزوجية مع بقية الأيام القادمة . سقفها منخفض وأثاثها تعلوه التحف والزخارف . أشبه ببالونة مستديرة ليس لها نهاية ولا بداية ، تلف وتدور لتترك فى النهاية خيوطاً دوّارة تضغط على صدغى .

⚙⚙⚙

كان حتما ولا بد أن أتكيف مع تلك الحجرة وأنا أعتاد عليها . وأخذت الأيام التى تلت ذلك تأتى مسرعة كتلميذات المدرسة حين يتزاحمن أمام باب الحجرة . حاولت أن أتحرر من وجوه تلك الأيام الرتيبة المتشابهة وأن أجعل الدفء يسرى فى ثناياها .

وفكرت فى تلك الأيام تفكيرا عميقاً حتى تكونت لدىّ رغبة فى الاستمرار على قيد الحياة ، تلك الرغبة التى وهبتنى دفعة من العزيمة . فرغبت فى ترتيب أثاث الحجرة من جديد ، ونقلت الزهريات من أماكنها ونفضت الغبار عن الأرآئك والكراسى ، وبدأت أحلم بما يليق بها من قماش جديد .

وعاودت التفكير فى أم الخير وفى رائحة ثوبها الترابية وفى يديها المخضبتين بالحناء وفى قولتها : « أنا مقصدشى أحرجك ، بس الكلام ده إيه فايدته ؟ »

لسوف أعلّم صغار القرية القراءة والكتابة ، وربما أعلم الكبار أيضا . رأتنى مثلما ترى الأمهات صغارهن ، رأيتنى كالأمهات حين يتعلق الصغار بثيابهن .

وحينما ظهر أبو سليمان وهو يعد الطعام ، أوشكت أن أصيح سعيدة وقلت له : « اسمع قبل ما تجهز الأكل ، روح هات لى ورد ، قطّع فروع من كل نوع ، وعلى قد ما تقدر ! »

عاد يحمل الكثير فى يديه فقمت من فورى بوضع الاغصان والزهور فى اكواب من الزجاج وزهريات من الصينى ثم ما لبث أبو سليمان أن ظهر مرة ثانية ومعه دجاجة بعض ريشها مندوف قائلا وعلى وجهه إبتسامة : « كده عال ، الفروع دى كلها كويسّه ... دى مش فكرتى أنا لوحدى . »

ثم رحل والدجاجة فى يده لكن عاد بعدها يقول : « كويس كده ، الواحد يحس إنه فى الغيطان ! » ثم غادر المكان .

صرت أسمع صوت « وابور » الجا يزأر وبعدها شممت رائحة الطعام تنتشر فى أرجاء الشقة . وكنت قد أزحت الستارة القطيفة التى لم أكن أحب ملامستها .

وعندما فتحت النوافذ ، كان شعاع الشمس يسقط على الجدران وفوق قطع الأثاث العارية وبين الأوراق . وكان أبو سليمان يطل برأسه من وقت لآخر والبسمة على شفتيه دائما .

وعند الغروب وصل بطرس سعيداً ثم قبلنى فوق جبينى وقال : « لقيت المجرمة ! »

– « المجرمة ؟ مجرمة إيه ؟ » .

لكنه أعرض فجأة عن وجهى ليتفقد ما طرأ على البيت من تغيرات وأخذ يحملق فى استغراب .

ولما كان متعسفاً حاد المزاج ، نادى أبا سليمان فوصل مسرع الخطى وريش الدجاجة لا يزال عالقاً بصدر مريلته . صاح فيه قائلا : « إيه اللى عملته فى بيتى ياإبن الكلب ؟ »

ساعتها رجعتُ إلى الوراء ثم قلت له : « أنا اللى عملت كل حاجة ، مش أبوسليمان اللى عمل كده ...» تصرف كأنه لم يسمع شيئا . ترى هل كان ذلك السباب لى أم للست رشيدة التافهة ؟

ثم أضاف قائلا : « إرجعى إنتى الأودة ! ده شُغلى أنا ، متدخليش فيه ! » ورجعت إلى حجرتى مزعزعة الساقين .

وظل يستمر فى صياحه بحدة : « اقفلى الباب وراكى » وكان صوت الطباخ المختنق يقاطعه : « لكن يابيه ...لكن يابيه »

وقفت وراء الباب ثم وضعت أذنى بجانب ثقب المفتاح : - « رجَّع الفرخة مكانها بسرعة . فين التحف بتاعتى ؟ ياحرامى يابن الحرامى ! والستارة القطيفة ؟ أنت شفت قبل كده فروع شجر فى البيوت ؟ مين بيعمل كده ؟ إرمى الفروع دى كلها فى الزبالة يامجنون !

وسمعته حين كان يعيد التحف والزخارف إلى الدواليب من جديد . كان بطرس يقول له : « لأمش هنا ، البرج البرونزى المذهب فى الدرج . وسمعته كذلك يرفع الزهريات بعد أن يفرغ منها الماء كما سمعت خشخشة الزهور الصناعية : « الزهور دى ! أختى رشيدة أعطتها لى هدية . دى بتْعيش من غيرى ميه على طول ! إنت سامعنى ؟ إنت رميتها يابن الزانية ؟ »

ولم يكن أبو سليمان يعترض على أقواله أو يحتج ، وأعاد الستارة الصدئه إلى مكانها .

وهكذا أمست حجرتى غير حجرتى ، وتركت مكانها لحجرة أخرى غيرها . لم أكن كالأزهار التى يعيش بدون ماء . ووجدتنى جريحة أتالم . كان الجفاف يميتنى .

وكانت أذنى تزداد إلتصاقا بثقب الباب وهو يشوّه معالم حجرتى ، وهكذا أهين أبو سليمان وشُتم نتيَجة لخطأ لا دخل له فيه ، خطأ أرتكبته .

بعدها جلس بطرس فوق الأريكة الخضراء ، جلس يعبث بحبات المسبحة فى إنتظار ساعة الجلوس إلى المائدة .

٥٥٥

أردف يقول : « قلت لكى ، أنا لقيت المجرمة ! » وجلسنا حول المائدة المستديرة ، وأخذ أبو سليمان يحُضر أطباقه . لم أجرؤ النظر فى وجهه .

- « كنت فى البلد ، مكانش حد عايز يتكلم ، محدش كان عايز يقول مين اللى كانت بتغنى . كنت متأكد إنهم عارفين . سألت الاعمى لكن مقالش هو كمان مين اللى كانت بتغنى ... والاعمى عارف كل حاجة . ! النسوان بيقولوا له كل أسرارهم ! وأنا هددتهم عشان يجيبوا البنات عشان جمع القطن من كل مكان . وبعد كده مشيت . جريت بهية ورايا والدموع فى عينيها وقعدت تقول : « أنا يابيه ! »

- « بنت أخ أبو سليمان » بنت شقية ، وأبوها إداها علقة قدامى !

وهكذا أمسيت اكره بطرس وامتزج حقدى عليه بقرفى منه . كان فى عينى - وكل بطرس فى الدنيا كذلك - منكلفا متعسفاً متسلطاً .

أصبحت أرى كل بطرس فى الدنيا وكأنه يرسم أقدار الناس ، أراه يدوس الفررع والأغانى ، الألوان والحياة نفسها . كل بطرس كان يخنق الأشياء لتصير مثل قلبه الضامر ، يتقدم بحذر لكى يخنق المشاعر

المشاعر الدافئة .

من المحتمل أن يأتى اليوم .

أخـذ بطرس يتناول الطعـام ولسـانه يصطك فى فـمه بينمـا أبو سليمان يقوم بالخدمة ثم أعد « لمبة » الجاز .

سوف يأتى اليوم الذى تحل فيه المشاعر الدافئة محل النيران بناتنا ، بناتنا ، ربما لا تكون بناتنا مـثل الطحـالب التى تنمـو حـول جذوع الأشجار الخاوية .

ستكون بناتنا مخـتلفـات عنا . سـوف ينشـأن عن الخـبل الذى يحتوينى حينما أسمع صوت الرجل وهو يقول : « كنت متضايق من بهية لكن الضرب بانت نتيجته . إنتى ساكته ليه ؟ جاوبى على السؤال !

عندك حق ! ده شغلى . متدخليش فيه ! »

رفع أبو سليـمـان المفـرش الأبيض ثم وضـع مـفـرشـا آخـر له « شراشيب » من الحرير ، وبعدها وضع « لمبة » الجاز وسط المنضدة، رفع الشريط « سنتين » ليصـير الضوء مـلائما . وأخـيرا خرج ليعود بورق كوتشينة أطرافه متآكله الأطراف .

سألنى بطرس : « بتعرفى تلعبى ؟

– لا .

– لازم أعلمك ، بُصّى خلىّ بالك ...»

كان شريط لمبة الجاز ساطعاً يتراقص وبطرس يبسط الأوراق . الأحمر فوق الأسود . يقول : إننى شايفه ؟ دى بسيطه وبتسلىّ الوقت . دا أنا بلعب كل يوم بعد المغرب . لعبة الصبر !

كانت مسبحته البرتقالية المُلقاة بجوار كوعه لا تزال دافئة إثْر لمسات أصابعه . – « إدّينى الولد أبو قرقوشه ! ...آه ! أظن هنكسب ، تمام ... »

وعاد أبو سليمان بالقهوة التى أخذ بطرس يرتشفها بصوت مقزز وحينما وضع فنجانه ، كان تفل البن يعلق بشفتيه . »

- « النوبة دى أنا حاسس إنها هتكسب ! وظللت بجواره صامتة .

إلى أن بدأت أستسلم للملل .

- لأ لأ أنا عايز العروسة القرقوشة ، شايفة . أحمر على إسود ، إسود على أحمر ، مجموعة بستونى ، مجموعة وردة ، مجموعة بقلب...»

كانت حياتى تتفتت على هذه المنضدة ، كانت تبتعد عنى يوما بعد يوم .

كنت أحترق وأذبل مثلما ذبلت الزهور الصناعية !

وبطرس يصيح :

« كسبت ، كسبت ...كنت عارف كويس . إجمعى الورق هنلعب من جديد ! »

( ٦ )

مضى الشهر فى تثاقل ، كنت بالنهار أرى أبو سليمان ممسكا بالمنفضة الريش فى يده المتراخيه . كان يسير وفق نمط خانق من العادات ، يدور فى فلكه دون أن يفكر فيما يفعله . ظل عابس الوجه مكتئبا كما لو كانت كل مصائب الدنيا قد ألمت به ، وكنت أشعر أن عينيه ليست ملكه .

لم أكن أتحدث إليه على الإطلاق رغم أنى كنت أسمع وقع أقدامه فى الحجرة المجاورة . كنت على يقين أنه لا يريدنى بعد ما قام بطرس بتأنيبه مع أننى كنت السبب فيما حدث .

وكانت أم الخير وأبنتها زينب يأتيان كل يومين بسلة الخضراوات والفاكهة . كانتا تؤديان التحية بحذر ثم تعرضان ما تحضرانه بسرعة وتدعوان لى بيوم سعيد قبل أن نختفيا فى عجالة .

وهكذا خسرتُ أم الخير وأبنتها زينب ، كما خسرت بهية التى كفت من يومها عن الغناء تحت نافذتى.

وعلى هذا النحو صارت زيارة القرية فى نظرى مستحيلة رغم شوقى الجارف إليها ورغم تشوقى إلى معرفة الأعمى الذى تحدث عنه بطرس .

ورغم ذلك ، سئمت السير فى أرجاء الحجرة ذات يوم فعقدت العزم على أن أخرج للنزهة فى الحقول المواجهة للقرية ، تلك الحقول التى تمتد إلى بعيد حتى تنطبق السماء على الأرض . كانت بالسماء أستارُ تتعلق بها محرقة .

سرت أتعجل الخطى وحدى من جراء الحقد الذى كنت أتصوره فى قلب أبى سليمان وأم الخير وبهية ، فقد عجزت عن نسيان ما لحق بهم من حرج وخجل . كنت أسرع فى السير ليكون بينى وبين القرية بُعُد َشاسع . كان الطريق يقسم الحقول إلى نصفين ، وكانت تحده أشجار أوراقها ضامرة ، خفيفة الظلال . كانت الشمس تحرق رأسى ومع ذلك كنت أتابع المسير دون أن أنظر خلفى ، وفجأة سمعت صوتا خافتا ينادينى : « ست ... ياست ! »

إستدرت فعرفت أم الخير السمراء ، الصلبة العود . لوّحت لى بذراعها حتى أعود . ترددت برهة ووجدتنى فجأة أجرى نحوها دون أن أسأل نفسى عما تريده . وحين صرت على مقربة منها ، أنزلت يدها وقالت فى خجل : « تعالى البلد ! تعالى دوقى العيش بتاعى ! »

وقبل أن أرد عليها ، سبقتنى لترشد إلى الطريق . كنت أشعر أنها بذلت جهدا كبيرا حتى تنادينى ، وأن ذلك النداء سلبها كل شىء من عافيتها ، سارت أمامى دون أن تلتفت إلىّ . وبدت وكأنها أخذت على عاتقها وحدها مهمة اكتشاف الطريق . وتوالت الكلمات .

« أنا ما بمدحش في نفسي ، لكن العيش بتاعي أحسن عيش في البلد ! عيشي أنا ! أنا أم الخير ! »

وأدارت رأسها نحوي وشرعت تضحك في عصبية ضحكات مقتضبة : « عيش أم الخير زي ما بيقولوا ، أنا عايزه أخليكي تدوقيه . ياترى البيه مبسوط من الطبيخ إللي جبناه إمبارح ؟

أنا قطعت منه شقةّ بالسكينة عشان أتاكد إنه أحمر قوي .» ثم قالت وهي تستدير نحوي مرة أخرى : « إنتي شايفة الشجرة مانجة ، لما المانجة تطيب هجيب لك منها . عشان تعرفي المانجة الحلوة لازم تحسّسي عليها عشان تعرفيها ، لازم تكون لا جامدة ولا طرية ، زي بطن المولود . »

كنت أسمع كلام أم الخيرفي سعادة ، كما أحببت حركاتها ، وهي قريبة مني ، كنت أحس بالأمان ، وعندما ترى خرزة الحسد الزرقاء فوق صدري تقول : « أنتي لابسة الخرزة على طول ؟ »

لم أكن أعتقد أن الخرزة تلك تجلب الضُّر أو النفع ، ومع ذلك لم أخلعها من فوق صدري ، وأضافت تقول : « هتخلفي ولد ! صحيح زي ما أنا شايفاكي قدامي . هتخلفي ولد ! »

كانت القرية خلف الأشجار ، بعد طريق أشجار الموز الصغيرة بقليل و أشجار جُمعت أوراقها الشاردة بخرق قديمة بالية فصارت كالبنات الصغيرات اللاتي ضممن شعورهن القصيرة إلى أعلى الرأس .

قالت أم الخير : « إبنك هيكبر تمام زي شجر الموز ده ، ولما يكون عنده ثلاث سنين هياكُل منها . »

كانت القرية مثل عجينة كبيرة ، لم يكن هناك بيت لا ينفتح بابه على الحقول . كانت تشقها حارة ترابية ، وكانت أسطح جميع المنازل مغطاة ببقايا من القش والحديد القديم .

قالت كذلك : « تعالى مرة زورينى ، ده شرف كبير للبلد كلها ! »
فقلت لها :

- « انتى عارفة أن أنا عايزه أزور البلد لكن من يوم البيه ما زعل وأنا خايفة »

- « ردت تقول : أيوه . أيوه »

أسرعت فى السير ، كان تعليلى لعدم زيارة القرية قد سبب لها الكدر والنكد :

« أيوه أنا عارفة إن عندك شغل كثير ، كل الحريم هنا عايزين يشوفكى . وبيكلموا الأعمى فى كده على طول ، وكنت بقول لهم إن الموضوع ده عاوز وقت لسّه ! »

كانت المنازل متجاورة وأمام أبوابها أطفال فى ثياب رثة ونساء واقفات تنادين ، تصحن عند الكلام . وحينما رأيتنى سكت عن الحديث .

قالت أم الخير : « فى الساعة دى ، الرجالة كلهم فى الغيطان والبلد بتكون كلها ملك الحريم والعيال والأعمى كمان ! »

۞۞۞

كان مسكن أم الخير فى آخر القرية فصار لزاما علىَّ أن أمر بجميع المنازل الآخرى . وساعة دخلتُ القرية وقفت النساء صامتات يتغامزن بأذرعهن ، أفواههن فاغرة ، وحولهن الأطفال يغطون فى ملابسهم وطنين الذباب يملأ الآذان .

كانت عيونهن متعلقه بفستانى وشعرى وصدرى وبطنى عما أذا كنت أحمل فى أحشائى جنينا . كن لا يسترحن إلى رؤية المرأة العاقر .

قالت أم الخير : « دى نفيسة » . وجدُتنى أقف أمام عجوز تجلس على الأرض ، ترسم بسبابتها خطوطا ودوائر على الرمال ...» وعلَّقت أم الخير على ما تفعله نفيسة بقولها :

- « إنتى شوفتى للواقفين قدامك دول البخت ، لكن مفيش حاجة من اللى قلتيه هتحصل . مش كده يانفيسة ياحلوه ؟ »

- « إنتى مجنونة ياأم الخير ! ياعجوزة يااللى مخك بيْوفوّت ياكافرة ! »

قالت أم الخير ويديها فوق وسطها : « أنا كافرة ؟ ! »

كانت مؤمنة بالله وكانت تعتقد فى كرامات الشيخة ، كانت الشيخة فى نظرها تعرف الطالع ، لهذا قالت لى :

« هروح معاكى عند الشيخة وقت ما تحبى » ، ثم توجهت إلى نفيسة قائلة :

- « إيه يانفيسة ! أنا لا عجوزة ولا مجنونة ، متقوليش كده . إنتى قدى فى السن مرتين . إنتى يمكن قدْستِّى »

كنت سعيدة لذلك المشهد الفريد

قالت نفيسة : « أنا قد ستّها ! بصّى لى ياعجوزة يامكرمشه ، اللى يشوفها يقول أن كل الناس عجنوا وشّها !

ثم ضحكت وأردفت تقول : « ومع كده شكلها وحش ، زى الفارة العجوزة الجربانة ! »

أنفجرتا فى الضحك وأنحنت أم الخير على صاحبتها ، وأخذت كل واحدة تربت على ظهر الأخرى وتهمس فى أذنها :

- « ياغراب ياعجوز !

- « ياإبرة مصديّه !

وبعد ذلك قالت نفيسة :« إسمعى ياأم الخير ، عشان الست أول مرة بتجى البلد سبينى أقول لها البخت . »

– لا لا يانفيسة ، مش النهارده ، المرة الجايه ، النهارده جايه البلد عشان تدوق العيش بتاعى !

– عيشك ؟ قولى أحسن عيش فيه رمل !

لكن أم الخير غضبت تلك المرة وانتفخت فتحتا أنفها وقطبت جبينها .

– « أيوه عيشك بالحصى ! ...فيه قش ! زى عيش السجون . »

فى تلك الآونه أخذت النساء الواقفات تهمسن بهذه الكلمات : « حتى العواجيز بيتخانقوا بصوت عالى . اسكتوا بقه ! إنتم مش مكسوفين ؟

– عارفين إن الرجالة فى الغيطان ! »

أخيرا أشارت أم الخير بيدها حتى تستمر فى السير ، فسرتُ وراءها . هنا رفعت نفيسة رأسها فظهر وجهها المجعد . قالت :

« يجعل حياتك زى الفل ! زى عيش أم الخير » قالت أم الخير : « تعالِى ورايا » ثم توقفت ثانية وقالت : « نفيسة زى الدهب . أنا عارفاها كويّس من زمان ، بس لما تحبى تعرفى البخت هروح معاكى عند الشيخة اللى ساكنه فى العزبة اللى جارنا . وهيكون خير لما نروح لها . »

٭٭٭

كنت لا أزال أسير وراءها حينما قالت : « آخر باب هوّه اللى قدامك هناك ده »

كانت هناك سيدة من أهل القرية مستندة إلى جدار ، كانت تلك السيدة تتأملنا بعينيها الواسعتين المتحجرتين . كان لون بشرتها الندى يتسق فى سمرته مع ما يحيط بها من كل أتجاه .

وظلت عيناها تنظران إلى لا شيء وكأنها ناعسة . أم الخير : « إيه يارتيبة ! ... تعالى سلمّى على مرات البيه ! »

بذلت رتيبة جهداً لتنسلخ من الجدار وسارت نحونا بخطوات مترنحة ثم قالت :

« يجعل إيامك ســـعيدة ! » وابتسمت أبتســامة من أعماقها ثم قالت :

« يمشى الحال ياأم الخير ! ماشى الحال ! متفكريش فى حاجة . مفيش فايده فى التفكير ! » وأضافت تقول :

« أنا بكرههم ! بكرههم كلهم ! »

كنت أرى أسنانها اللامعة ، خيل إلى أن الكلمات وهى خارجة كانت تحفر ممراً لها بين تلك الأسنان . كانت تضغط على شفتيها وهى تخرج الحروف .

أم الخير : إنتى بتعيدى الكلام وبتضيٌعى الوقت . لازم تنسى : إيه الفايدة فى التفكير كثير ؟ »

رتيبة : أنا كارهاهم ، يطقُّوا ، يفرقعوا الأثنين !

أم الخير : أسكتى . آه لو الرجاله يسمعوكى !

رتيبة : كله عندى زى بعضه ، يفرقعوا ! هقول كده على طول !

كانت تتحدث أمامى وكأنها ليست موجودة . كان غضبها ملتصقا بجلدها . وكان وجودى قد أيقظ عند الأخريات فضولا مثل فضول الأطفال .

وسرعان ما أبتعدت عنا ورجعت إلى الوراء . وعندما أحست بالجدار خلفها أسندت ظهرها إليه وتنهدت من أعماقها .

قالت أم الخير : دى اتجنّتْ ، يمكن اتجنّتْ من زمــان ! دى أخت سيدة ...

– سيدة ؟

– أيوه . وغمغمت أم الخير :

« كل الناس عارفة حكاية سيدة . حتى الجرايد كتبت عنها ! »

سيطرت علىَّ الرغبة فى أن أجعلها تكف عن الكلام . كان عندى إحساس بأن مأساة رتيبة وآلامها فى معيتى على الدوام . كانت آلامها تلك تخيفنى .

لكن أم الخير لم تكف عن الحديث . أخذت تحكى ما حدث لسيدة . قتلها أبوها وأخوها بالسكين . كانت كبيرة الأسرة ، قامت بتربية إخوتها الصغار كما قامت بتربية رتيبة .

كانوا قد شاهدوها مع رجل قرب أشجار النخيل عند المساء . وحينما ورد الخبر إلى أبيها ذبحها بالاشتراك مع أبنه . كانت أرملا وكان مشينا أن تُرى مع رجل غريب . وهكذا جنَّ جنون الأب وأبنه فقتلاها .

« لكن رتيبة تحب أختها وتُعزها : ولا تقدر الأمور وتنسى أن أخوها وأبوها على حق . »

قابل رجال القرى المجاورة قتل سيدة بالارتياح لأن الأب وأبنه غسلا بذلك العار الذى لحق بشرفهما . خصوصاً الرجال . اما النساء فقد رأت فى ذلك الحدث إنذارا لمن تسول لها نفسها فعل ذلك . لكن رتيبة مش عايزة تفهم إن أبوها وأخوها هربوا . وبتتمنى يمسكوهم ويعدموهم . عشان كده هتتجنن »

كانت أم الخير تتحدث بسرعة كما لو كانت تريد بذلك أن تنسى الحادثة وألا تتذكر الماضى وتستعيده . قالت : أنا عارفة حكايات كثيرة بالشكل ده ، لكن أنا عايزة أنسى . أنا غير الناس اللى يحبوا يتكلموا على غيرهم لما ما يلاقوش كلام يقولوه . دى حكاية رتيبة بقت على كل لسان فى البلد . عشان كده مش قادرة تنسى .

كيف يمكن إنقاذها مما هى فيه ؟ وأى مساعدة يمكن تقديمها إليها ؟ لا بد أن يغير هذا العالم الخيالى نظامه ، ذلك العالم الغريب الذى يفرض نفسه عليك ، كما لو كانت تلك هى طبيعة الحياة . كنت أستشعر تلك الحقيقة بنوع من الحياء والخجل .

لكن إلى من كان بالأمكان أن أتحدث عن هذا الأمر ؟

تعلق طفل حليق الرأس ذو خصلة شعر فوق جبينه ، بردائى وقال :

« إدينى مليم . مليم واحد »

ساعتها صاحت فيه أم الخير قائلة :

« ياابن الحرامية ! إرجع لأمك تعلمك إزاى تمد إيدك وتشحت »

كان هناك رهط آخر من النساء يسير وراءنا . كن متجاورات فبدت ملابسهن كأنها ثوب واحد . أسترعت واحدة منهن انتباهى بنظراتها الصافية . كانت وكأنها تحمل كل بسمات القرية فوق وجهها .

وحينما تقدمت نحوى لم أستطع أن أحبس ابتسامتى ، كانت تسخر من جسمها السمين لتضحك .

- « إنتى رايحه تدوقى عيش أم الخير ؟ ده أحسن عيش فى البلد . مقدرش أعمل زيه . كان زمان . دلوقتى إديه بقت تخينة مقدرش أحركها »

ثم ربتت على فخذيها بجهد يائس محاولة أن ترفع يديها إلى مستوى الكتفين لتنزلهما بعد ذلك . كانت تطلق ضحكات عالية قالت أم الخير : « دى اسمها سالمة »

كان بمقدور سالمة أن تجمع كل الآلام فى غربال ثم تهزه حتى لا يبقى منها غير الناعم القليل فتنفخه بعدذلك لتذروه الرياح .

ورغم ذلك ظلت رتيبة وحدها تمتنع على الضحك . كانت لا تزال مكانها تحت أشعة الشمس المحرقة

قالت أم الخير : « سالمة تقدر تضحك كل النـاس حتى الأعم » . كنت أسمع الكلام عن الأعمى فيخيل إلى أنه أسطورة مثالية صامتة تحكم القرية حين يكون الرجال فى الحقول .

وإردفت أم الخير تقـول : « دايما سالمة تضحك الأعمى بَسْ لما يكون زعلان ... محدش ينسى الأيام اللى يكون فيها زعلان » وكانت أم الخير تلتمس له العذر : « يوم ما ضربوا بهية ، كان زعلان . ده ياعينى أعمى من زمان . وعايش فى دنيا تانية ! ... ولما يطلع فى زعله ، يقعد يضـرب الأرض بعصـاته ...من عشر سنين ، سرقت واحدة من البلد أربعتاشر خرشوفة وثلاثين كيلو فول من المخزن ، جه ناظر العزبة القديم - اللى كان قبل البيه جوزك - جه ومعاه ثلاث عساكر شويشيه وخدوها . وأنحبسـت خمس سنين . قالت إن معـاها سبع عيال بيعيطـوا من الجـوع ورغم كده جرجروها على النقطة ! غلطانة طبعا اللى سـرقت .

كنا كلنا خايفين ورجعنا بيوتنا لكن الأعمى محبّش يرجع بيته ، يمكن مكانش شايف نفسه وهوه خايف . وقف وسط الحارة والعساكر بيجرجروا الست ، وقعد فى الحارة لوحده يضرب الأرض بعصاته بكل قوة .

متتصوريش عافية الأعمى ! بيحافظ على عافيته جُواه ولا يبعترهاش بعنيه . وساعات عافيته تطلع علينا ، قعد لواحده يضرب الأرض لغاية ماعمل حفرة بعصاته . كلنا كنا بنبُص عليه من وراء الأبواب المقفولة . والعيال طلعوا واحد فوق التانى عشان يشوفوه من خرم الباب . كان لواحده فى الحارة بيدق الأرض بعصاته مدة طويلة

حتى بعد ما خدوا الست النقطة . ولما خرجنا من البيوت سكت ولما قربوا منه شافوا الدموع نازله على خده زى السيل ! ....»

« بيتى هناك أهو » قالت أم الخير قبل أن تلتقط أنفاسها .

۞۞۞

كان يخرج من فتحة باب منزلها دخان قاتم كثيف . قالت لى أن أنتظر ودخلت قبلى ثم عادت وفى يدها ورقة وقالت : « دلوقتى تقدرى تدخلى وإبعدى الدخان بالورقة لو ضايقك »

جلست زينب ورداؤها الأسمر يغطيها تماما فلم أر غير أصابع قدميها ويديها . كانت سعتها تقلب العجين . أومأت برأسها عندما دخلت وظلت تعد الخبز دون أن ترفع بصرها عنى .

قالت أم الخير : - « أبعد الدخان عنك أحسن بيضايق الواحدة لما تكون مش متعودة عليه » ولم تشعر هى بمضايقاته . جلست وأخذت العجين الأسمر وقطعته قطعاً كالكرة . ثم أخذت تقلبها فى يديها ووضعتها فوق « المطرحة » . وظلت ترفع قطعة العجين فوقها إلى أن صارت رقيقة مستديرة ثم أدخلها الفرن بعد أن زلقها ببطء وحرص .

كانت تلقى فى الفرن ببعض القش . وكان ذلك الفرن المبنى من الطين . يستخدم كمكان للنوم أثناء الليل

وكان الدخان يجتاح الحجرة فى دوامات تلفح الوجوه وكنت أسعل لأطرده .

وعندما أخرجت أم الخير أول رغيف من الفرن قالت : « بُصّى ، ده قاببْ وخفيف زى الهوا ! دوقى ، هتحبيه ! » كان الرغيف مستديراً كقرص ذهبى ، كان يهبط كلما غمست فيه أسنانى . كان طعمه حرّيفا وراق لى مذاقه .

أم الخير : هيه ؟

زينب : إيه رأيك ؟

ولما كان فمى مملوء ! لم أتمكن من الرد .

- كِلِى ، كُليه كله ! هنديّكى كمان منه للبيه »

كانت نيران الفرن تتراقص وتلقى أضواء وردية فوق الوجوه وهكذا ظلت أم الخير تخبز العيش الطازج حتى ملأ ذراعى . كان ذلك الخبز ينثر ذرات الدقيق فوق ثوبى . وظلت زينب وأمها تبتسمان حينما أبتسم .

ولما كانت يداى مملوءتين بالخبز فقد أصرت أم الخير على مرافقتى قائلة :« أنا جاية معاكى وهجيب معايا الباقى . هجيب لك منه كتير على طول »

سرت أحمل الخبز وقدماى تضربان الحصباء ، وعندما قابلت الأعمى لم أحفظ توازنى فسقطت أرغفة الخبز ، ولم يبقى منها غير رغيف واحد ضممته إلى صدرى بعد أن نشبت أظافرى فيه .

لم أرى غير ظهر الرجل أول الأمر ، كان يساعدنى فى التقاط الأرغفة . وقد عرفته لأن أحدا غيره لم يكن فى القرية من الرجال وقت النهار . بعث صوته الراحة فى نفسى أم الخير عندما قال : « مفيش حاجة ، التراب بيطير » تناول الرجل ثلاثة أرغفة أو أربعة لا أدرى ومسحها بجلبابه قبل أن يعطينها . قلت له : « متشكرة ، متشكرة » مستشعرة الضيق والخجل منه بينما كانت أم الخير كالطفلة التى ضربوها .

أردف يقول : « ميْهَمشْ ياأم الخير ، دول شويه تراب بساط ، مخسّروش العيش ثم اتجه نحوى مبتسما وقال : « زيارتك شرفت البلد . شرفتى البلد قوى ! ».

كانت بسمته وضاءة تعوضه عن فقدان البصر . كان ذقنه دقيق

وأنفه كبير ، يلبس عمامة كبيرة ناصعة البياض ولم أجد ماأقوله له غير تكرار شكرى وامتنانى ثم سرت وراء أم الخير التى وجدتُ فى رفقتها بعض السلوى .

❁❁❁

ظللت أفكر فى الأعمى أثناء المسير ، كنت أتطلع إلى البقاء بالقرب منه فترة من الوقت .

أحسست بالصمت فى داخله . وسمعت فى صمته صوت الأخريات . أدركت – وكنت على يقين – أنه يعرف ما يدور فى القلوب ، لقد قال عنه بطرس :

« الأعمى عارف كل حاجة ، والحريم بيقولوا له أسرارهم »

أخذت أفكر فى الرجل ، أُرجع أصله إلى الأرض السمراء الحكيمة التى ينفخها الفيضان أحياناً .

وقالت عنه أم الخير :

« كان واقف يضرب الأرض بعصاته ، وعملت حفرة فى الآخر »

لم أكن أفكر فى غيره أثناء العودة ، تخيلته بينما هو يسير بخطى وئيدة ، كما لو كان قد أخذ قدر القرية على عاتقه . كنت أتصور عمامته الكبيرة البيضاء تلمع كالجوهرة .

كان يمكن أن تحسبه قادما من بعيد بوجهه الأملس وفوق رأسه تاجه المصنوع من نسيج التيل .

وأخذت أم الخير تردد : « البلد فى الساعة دى بتاع العيال والحريم والأعمى . » واستدارت لترى عما إذا كنت أسير وراءها .

وعند باب منزلنا أفسحت لى الطريق لأسير أمامها ثم صعدت السلم ورائى . كان باب المنزل مفتوحا وبطرس قد عاد لتوه .

ساعدتنى أم الخير فى وضع الخبز فى سلة كانت تحت منضدة المطبخ ثم رجعت فى الحال دون أن تقول كلمة .

كان بطرس جالساً فى الصالون يضرب مسند الأريكه بكفه : « مفيش زيارات للبلد وانتى لوحدك . إعرفى مكانك واحفظى كرامتك . ممنوع الاختلاط بحريم البلد . أختى رشيدة عمرها ما حطت رجلها فى البلد . كانوا بيجيبوا لها كل حاجة هنا . حفظت مركزها ...»

واستمر قائلا وحاجباه يلتقيان : « مرات الناظر ميصحّش تدور فى البلد اللى مفيش فيها واحدة محترمه ! »

لم أعرف ما أقوله .

وما لبث أن نهض متجها إلى المطبخ ثم سحب السلة من تحت المنضدة ورفع غطاءها الأخضر :

« العيش ده أنا مش عايزه ! ...النسوان دى إيديها وسخه ! أنا بَعَتْ أجيب عيش من العزبة اللى جارنا ، هناك عندهم طابونه . مش عاوز آكل من ده . ده حامل لجميع الأمراض . إرميه ! ده ينفع للبهايم ! »

وكان من المفروض أن أرحل فى تلك اللحظة وأن أقول « لا ! » ، لكنى بقيت .

طاردت أفكارى وأحنيت ظهرى وقمت بوضع الخبز فى لفافة من ورق الجرائد القديمة ثم وضعته خلف الباب .

كنت سأحمله فى وقت ملائم لألقى به فى القناه حينما أشعر أن أحدا لن يرانى .

( ٧ )

وأخذ الزمان يدور دورته ، وتركته يسير كما يحلو له .

كانت المرآة الكائنه تحت المشجب فى مدخل الشقة تضعنى أمام الأعوام الثمانية التى مضت من عمرى قد تجاوز أربعة وعشرين عاما . لكن ذاك القدر اليسير من السنين لم يكن لمدلوله أثر .

أدركت المفاجأة حينما نظرت فى المرآة ، فصرت أرغب فى الهروب من أمامها . ومع ذلك كنت أقترب منها وأدقق ، النظر ، أنتفخت مقلتى وتجمع الشحم حول ذقنى وبات من الصعب أن أرى حمرة الدماء فى وجنتى . كانت المساحيق فوق بشرتى بلا اتساق . تبدو كأنها « لطعة » فوق الخدين .

تحسست بأناملى فسمعت خفيفا مثل حفيف الورق المكرمش واكتشفت خطين على جانبى فمى ، ووجدت كذلك حدقة عينى قلقة مهتزة ، كما وجدت شعر رأسى جافا فضممته بمنديل بنفسجى حتى لا يلهب بشرتى .

كنت حين أخطو خطوة إلى الوراء ، أرى كامل هيئتى فى المرآة . لقد صار مظهرى ثقيلا . وحين كنت أضع راحتى فوق بطنى التى لم تكن قد حملت حتى ذلك الحين ، كنت أراها مترهلة ثقيلة . وكان « شبشبى » اللامع يصفع كعبى بايقاع حزين .

كنت أكره أن أرى صورتى التى تبدو شيأ آخر غيرها .

وكنت على يقين من ذلك فيداى غير يداى ، وخلف عينىَّ عينان غيرهما وبداخلى ذات أخرى حبيسة ثائرة ضد الموت البطىء الذى كنت أقودها إليه .

كم كنت مثل نساء بلدتى ! كم كنت مثل نساء البلدة اللاتى يتمزقن بين العادات والعرف ، لكن نساء قريتى إذا كن يتمزقن ويستسلمن فى خنوع فأنا غير راضية على الأطلاق عن حياتى . ولم تكن حياتى

إلا الرفض للخنوع . لم أتقبل تلك الحياة أو أرى بها لى أو لهن . لم أقبلها لا للفقراء ولا للأغنياء على السواء .

كنت لا أقر الفكرة القائلة بأن المال هو مصدر السعادة وأن الغنى بإمكانه أن يعزل نساء القرية عنى . من الذى كان ينظر إليهن نظرة حب وإعزاز ؟ ماذا يمكن أن يقدم المال للحب ؟ لم أوافق على ذلك يوما لكنى لم أعرف كيف أتصرف ولا أين أتوجه بأفكارى .

كنت أتوق إلى اكتشاف الصورة فى العيون المحبة ، صورة اللاتى تطلَّعتُ إلى أن أكون مثلهن . ولم يعد أمامى غير تلك المرآة بسطحها البارد تحت راحتى ، المرآة التى كان أبو سليمان يقوم بتلميعها بقماش من الشامواه .

وجدتنى وحدى ولم أتلقَّ من أخبار أسرتى غير القليل . فقد اعتبرنى زوجات إخوتى فى حكم العدم ، وكن يجدن صعوبة فى الترفيه عنى .

زارنى والدى مرتين ، أخبرنى خلال إحداها بموت ظريفة . وعند الزيارة ، كان زوجى يذبح خروفا على شرفه ، ويظهر مليىء الجيب منتعشا ، ورغم ذلك يظل يشكو على الدوام حتى لا أطلب منه شيأ.

لسوف أدخر المال دائما لأحتفظ به رغما عن بطرس الذى كان يلاحقنى بكلماته : « بابا معطاكيش مهر ، وأنا بَصْرف على حسابى دايما . تجارتة بتكسب كثير . ده إشترى عربية ! بيقولوا أن أخواته البنات عندهم دهب كثير . إطلبى منه يجيب لك دهب . متسيبهوش بالشكل ده »

وكان والدى يأكل الخروف مع بطرس ويحس بالبهجة معه . وبعد أن يتناول القهوة ، يقوم بطرس من مقامه ثم يرمقنى بنظرة المتوَاطىء ، بعد ذلك يتركنا وحدنا وكلماته لا تزال ترن فى أذنى . « لازم تطلبى منه يجيب لك دهب »

أما أخى فكان يقول : « فين الصحة التمام ؟ » الحالة صعب قوى ، ياسلام على جو الأرياف ! مفيش أحسن من كده ، عشان تكونى على طول فى صحة وعافية . إنتى محظوظة ! » ثم يرحل مع قدوم العصر .

وفور رحيل السيارة ، وفى الوقت الذى يلوح فيه لوالدى الذى كان منديله الأبيض آخر ما نراه منه ، كان بطرس يقول : « وبعدين ؟ عملتى إيه ؟ كلامك جاب نتيجة ؟ »

ساعتها كنت أصعد السلم عدوا دون أن أجيبه . »

۞۞۞

واضطررت أن أقلع عن التفكير فى العودة إلى القرية : « لازم الواحدة تعرف حدودها ، كل واحدة تعرف مكانتها » وفهمت النساء ذلك جيداً فرغبن عن زيارتى ولقائى كما ساد بينهن إحساس بالضيق لسبب آخر تماما .

كنت حتى ذلك الوقت لا أزال عاقرا .

كانت النساء يتوجسن خيفة من المرأة العاقر وكن يسألننى : « هتجيبى ولد واللا بنت ؟ » ثم نا لبثن أن فقدن الأمل وأخذن يتجنبن لقائى . وأصبحت كلمات أم الخير لى تتسم بالشفقة والعطف .

قال بطرس ذات يوم : « رشيدة بعتت لىّ جواب بتقول فيه إن كل شيئ عادى ، وإن أهلك خدعونا فى صحتك . هوه ده كلام اللى قالته ! » .

ووسط تلك المشاعر والأحاسيس والكلمات ، صرت أنادى الصغير ، أحرك شفتى وأناديه ، أطلبه من الزروع والليل والشمس . كان ينتابنى إحساس بالخجل والجزع فى نفس الوقت . وكنت أقوم بالتنزه فى الحقول وحدى حتى ارفه عن نفسى وأبدد ذلك الإحساس .

كم كان الريف غير مكترث بحالى ! لكنه كان بمنازله المنخفضة

وسيقان اشجاره المتداخلة الشاحبة وشطآن جداوله الرقراقة ، يدُخل فى نفسى الإحساس بالراحة والهدوء كانت ألوانه الشاحبة تذوب ، فى النهاية ، وسط مياه القناة الضاربة الى الصفرة .

كان الشراع يبتعد فى بعض الأحيان ثم يتجه الى مكان مجهول . كان يسير مستقيما نشطا تحت أغصان أشجار الصفصاف المتدلية .

كان بطرس يقول : « أمين عمدة البلد ، طلّق مراته بعد سنتين من الجواز عشان مخلفتش ولد ، لكن الدين بتاعنا بيحرم علينا كده ! » ورسم علامة الصليب .

صرت أحاول أن أنسى صورته وأن أنظر إلى النسوة اللاتى يتقدمن بخطوات واسعة ثابتة وجرارهن فوق رؤوسهن . فى الطريق الى النهر . كن يرفعن ثيابهن فتظهر سراويلهن ملتصقة بركابهن . كن يغسلن الملابس الداخلية والجاموس يستحم حولهن ، جَاموس لا يرى الانسان منه فى الغالب غير رؤوس طافية فوق سطح الماء .

وذات يوم ، قال بطرس :

« جمالات مرات حسين معندهاش إلا بنتين . يتهيأ لى إن ده نقمة من ربنا ! »

لم أكن أرغب فى الطفل الا لأسكت صوته . كانت رغبتى فى إنجابه حقيقته حتى انها لم تفارق ذهنى . وهكذا صرت أتجول مع احلامى حينما أسمع طفلا يتكلم ، فكنت انحنى لأنظر من الشرفة ولا سمَع ضحكات الصغار وحكاياتهم وهم يلعبون فى الحارة .

كنت أتأمل حركات رؤوسهم ، أعجب بأذرعهم الملفوفة وباللحم الذى يكسوها . وأهفو إلى دعوتهم للاقتراب منى لأشبع نظرى . ورغم التراب الذى كان فى ثنايا رقابهم والذباب الذى يتهافت على وجوهم ، كنت فى شوق إلى أن أضمهم إلى صدرى وأن أتحدث معهم .

وذات صباح بارد إرتديت معطفا أعطانيه والدى . كان معطفه هو : « إظبطيه عليكى واقلبيه . ده كويس فى الريف وكده كفايه ! » .

لم أتمكن من ضبطه على جسمى فانضم إلى ملابسى التى ألقيتها فى الدولابّ ، وكانت فى حاجة إلى أزرار أو مشابك .

يزداد المنزل برودة أيام الشتاء لأن أبوابه ونوافذه تسمح بمرور الهواء من فتحاتها . وهكذا كان البرد يستقر فى منزلى فوق الجدران والمقابض .فكنت أمكث الساعات الطويلة فوق السرير فى انتظار النوم واضع بين الأغطية زجاجة مياه دافئة .

أخرجت معطف والدى ذاك الصباح ولبسته . كان عريضا متهدلا فوق كتفى . راحت الرياح شديدة تنفخ كمه . ولذا اسرعت الخطى ليبتعد البرد عنى .

لم يكن فى نيتى غير المسير ، ولم أفكر فى شئ على الإطلاق ، ولم يكن يتحرك من جسدى غير ساقاى . وكل ما كنت أفعله هو أنى أخذت أعد الأرقام لأبعد عنى الوساوس والهموم . ومع ذلك عجزت الأرقام عن إبعاد الهموم لفترة طويلة :

« واحد ، اثنين ، ثلاثة .... » كنت أعد الخطوات « خمستاشر ، ستاشر ، سبعتاشر .....»

لكن الأرقام جذبت إنتباهى ، فصار ولابد من الاستمرار فى عد الخطوات . وهكذا احسست بالدفء فشعرت بالسعادة لبعض الوقت . فرحة من نوع معين لم أكن غير جسر يسير على قدمين :

« ثلاثة وعشرين ، أربعة وعشرين ..... »

وبعد أن قطعت شوطا بعيدا ، صرت أسمع وقع أقدام تسير خلفى . كان هناك من يتبعنى . أصوات غريبة تقترب منى ، وجدت بعض الأطفال ورائى خيل إلى أنهم يتحدثون عنى .

قال أحدهم : « هيه دى ، هيه دى الست ! »

لكن آخر قاطعه : « مش ممكن »

قال الأول : لكن أنا قلت لك إنها هيه !»

كانت جملا قصيرة متناثرة مع وقع أقدامهم الحافية .

قال الثانى : أراهنك .

الأول : على إيه ؟

الثانى : على الكورة بتاعتى .

الأول : الكورة اللى لقيتها عند الترعة ؟

الثانى : أيوه .

الثالث : أنا عايزها ! »

لكن الذى قدم الكرة تراجع . كان سيعطيها للطفل الذى أتى الىَّ ليتحقق من شخصيتى .

أحدهم : انا بقول إنها هيه . يالله نروح نشوف !

آخر : وإذا مكانتش هيه ؟

الاول : « هتكسب الكورة الحمراء .

واحد منهم : هتكون بتاعتك .

قال رابع : « لأ لى أنا !

ثم تشاجروا .

رغبت فى المسير بسرعة أكبر حتى أعود الى المنزل وأغيب عن أنظارهم ، لكنى احسست بيد تتشبث بمعطفى ثم تلتها يد أخرى وسرعان ما ألتف الاطفال كلهم حولى . وأخذوا يتدافعون دون أن ينظروا إلى .

وأمسك أحدهم بذيل معطفى وجذبه بشدة وسط صيحات الأطفال

أخيرا ضاعت الكرة الحمراء وبدأ صاحبها يجرى وسط الحقول ثم تلاه الآخرون .

جلست على حجر بجانب الطريق . وقد تدلى ذراعى فى ثقل . نسيت البرد ساعتها وأخذت سخريات الأطفال تتزاحم فوق رأسى لدرجة جعلتنى لا أفكر إلا فيها . وظللت على ذلك الحال مدة طويلة إلى أن احسست بيد أخرى فى يدى ، كانت باردة مثل بطن العصفور .

قالت الصغيرة : « أنا اسمى أمال! »

كان شعرها على شكل ضفيرتين تشعان لونا أصهب فوق رأسها . لم يكن بوسعى أن أكتشف الحزن فى عينيها ولا أدرى عما أذا كانت تَبتسم لى . كانت عيناها غارقتين فى نوع من البخر مما جعل تعبيراتها غير متميزة .

قالت الفتاة الصغيرة : « عايزة آجى معاكى »

وددت بعد سماع هذه الكلمات أن أرفع يدها إلى شفتى لأقبلها لكنى خشيت أن أدخل الروع فى قلبها ، من أجل هذا قمت وصرت بالقرب منها .

قالت أمال : « أننا عارفة إنتى ساكنه فين أنا اللى بارعى الغنم مع عمى أبو منصور ، كل ليلة إحنا بنمشى تحت البلكونة بتاعتكم . »

- عمرك كام ياشطرة ؟

- معرفش . وأمى كمان متعرفش لكن أنا لسّه صغيرة .

- بيتهيأ لى إن عند خمس سنين .

- خمس سنين ؟ أنا هقول كده لاخواتى الليلة دى .

- عندك إخوات كتير ؟

- معنديش إلا إخوات صبيان »

وحينما وصلنا إلى المنزل أشارت إليه قائلة : « هو ده البيت بتاعك . » ثم سارت بجوارى حتى وصلنا إلى الباب ، ولم تترك يدى إلا عند أول درجة من السلم ثم قالت لى : « إطلعى إنتى »

قلت لها « تعالى شوفينى ياأمال : أنا هعملك فستان »

كانت أسنانها بيضاء لامعة وقد كشفت عنها حينما ابتسمت ، وحينما شرعتُ فى طلوع السلم ، رجعت برأسها إلى الخلف لكى ترانى . نظراتها تتعلق بى . وكنت مع كل خطوة ألتفت ورائى وألوح لها بيدى قائلة :

- « ارجعى ياأمال ! »

كانت أسفل السلم تتكىعلى عمود الدرابزين بيديها بينما رقبتها تمتد إلى الأمام . وأخيرا إنحنيت لأبتسم لها للمرة الأخيرة .

❂❂❂

بعد أن آنتهى الموقف وغابت أمال عن وجهى أغلقت الباب . ساعتها تبددت السكينة التى رافقت حضورها . وأثناء تواجدى بالحجرة لم أستطع الهرب مدة طويلة ، فقد تبدلت طبيعة الأشياء من حولى .

لم يعد الكرسى كرسيا ولا المنضدة منضدة . كما لم تعد السجادة سجادة ولا المصباح مصباحاً . وهكذا تبدلت الأشياء وصارت اشكالا غريبة وفقدت الالوان مدلولها ، وأمسى كل شئ فى الحجرة يرمز إلى التداعى والانهيار .

أخذت خيوط الستائر تتفسخ وأضحى الغبار يلتهمها وشرعت أشعة الشمس تأكلها . وبدأ السقف كذلك فى الهبوط ليضيق أرتفاع الحجرة كما وأوشكت الجدران أن تتلاقى فأحسست بانقباضة وكدت أصرخ .

وفجأة ظهر وجه باسمٌ فبدد الكابوس . كنت على يقين بأن وجه الصديق قادر على فعل كل شئ ، ومع ذلك عجزت عن إبعاد الهموم والهواجس عن عقلى .

هفت نفسى إلى رؤية وَجه أم الخير أو حتى ظريفة التى واراها التراب أو حتى وجه أمى التى رحلت عن الحياة منذ وقت طويل ، بل أننى أشتقت الى وجه آمال الذى غاب عنى منذ لحظات .

كانت تلك الوجوه كالأعلام التى يحملها الإنسان لكن الرياح تعيث بها فلا تذكر بشئ ، فصرت أتوق إلى النوم على الدوام وصرت أجلس فى انتظار الليل وساعة القيلولة .

طرق الباب طارق أو بالأحرى خربشةُ . قال الطارق الذى عرفت صوته بصعوبة : « ممكن أدخل ؟ ممكن آجى أكلمك ؟ » كانت أم الخير . دخلت مترددة وفوق صدرها سر تريد أن تبوح به .

– إدخلى .

– فـا جابتنى قائلة : « اسمعى . العيال شافوكى وحكوا اللى شافوه ... ودلوقتى بيتكلموا عليكى فى البلد ... وأنا مقدرش اسمع الكلام ده ... قلبى بياكلنى ! »

كان صوتها متحشرجاً ، وكانت وكأنها تحس بالدوار : « يمكن دى مش مشكلتى ، لكن أنا محبش اسمع كده . إنتى معندكيش عيل وجسمك بينزل . الصبح لما هيجيب لك سبت الخضار ... أنا مبقولش حاجه ، لكن أنا ليَّه عينين . أنا بقول لزينب : مرات البيه ، عدم الخلف هو اللى بيخليها تخس ... ، أنتى فاكره نفيسه كثيرة الكلام ؟ اللى بتضرب الرمل ؟

– ايوه ، فاكراها .

– أنا أخذت رأيها ! وقالت لى إنك لازم تقابلى الشيخة .

– مين الشيخة ؟

– اللى كلمتك عنها يوم ما جيتى تدوقى العيش بتاعى . لازم تروحى تقابلى الشيخة وهتقولك على اللى حتعمليه .

– لكن مين هيه ؟

– كل الناس عارفين الشيخة »

وبدأت أم الخير كعادتها تحكى قصتها فى عجالة دون أن تلتقط أنفاسها :

« لما الشيخة راقية ماتت ، كل العزبة والبلاد اللى حولينا كانوا فى ميتم .»

كنت جالسة على حافة الأريكة وأم الخير جالسة على الأرض . كانت ترى أن الشمس لا تزال فى كبد السماء وأن الوقت متسع لديها لتتحدث عما فى ذهنها حتى يجيئ بطرس . واستطردت تقول :

« الشيخة راقية كانت بتشفي المريضة وترجّع الراجل لمراته وتعرف الحرامى وترجع الحاجة اللى أنسرقت . كان عندها بخور بتحرقه وورق بتكتب فيه كلام محدش يعرفه إلاَّ هيَّه . الشيخة راقية بس هيه اللى ترجع الراجل لمراته ، وتخلى الست تحمل ! الحريم بيحكوا لها مشاكلهم ، وهى اللى بتبعد العفاريت والشياطين ! ... ولما ماتت كانوا فاكرين أن المصايب هتُقع فى البلد ، عشان كدة استمرت المحزنة شهر! والرجاله سابت الحريم ! ... وبعدين فى الحارة الملعونة بيومى بتاع اللمون ، واخده بالك ؟ ، اللى كان إيامها صغير فى السن ، جات له رعشة ووقع على الأرض والعرق نزل من جسمه وقعد ينهج ويطلع صوت غريب .

« واحد كان ماشى ساعتها عرف إنه صوت الشيخة راقية . آه لو كنتى سمعيه بيزعق ! جَتْ ناس تانية وسمعوا الصوت ، قالوا ده صحيح ، ده صوت الشيخة راقية . ساعتها شالوا بيومى وسكنت فيه . سكنت فيه الشيخة راقية ، شالوه لبيت الشيخة راقية . وعلى كده اختارت بيومى وسكنت فيه .

ومن يومها بيقولوا على بيومى « المبروكة » . والحكاية دى حصلت من ثلاثين سنة والشيخة لغاية دلوقتى ساكنة فى جسم بيومى ويتساعدنا ...

هقولك على اللى عملته معايا فى يوم ...

إنتى دلوقتى بتكبرى فى السن ، ولما الواحدة مبتحملش ، السنة من عمرها تمر بمقام سنتين . البيه بكره طول النهار مش هيكون فى البلد ... قالوا لى كده . أنا كلمت أبو سليمان يوصله للمحطة ، ولما يرجع بالعربية هنروح لها .... »

لم أصدق لحظة كلمات أم الخير ولم أعتقد مطلقا فى كرامات الشيخة لكنى سعدت لمجرد فكرة قضاء يوم فى صحبتها .

« بكرة نتقابل على خير . وربنا يحفظك » .

هكذا قالت أم الخير قبل أن تفارقنى .

وقبل أن يأوى بطرس إلى فراشه قال : « مش هكون هنا بكره فى البلد طول النهار ... وقولى لأبو سليمان يذبح جوز حمام ويحمره على ما أرجع »

⚙⚙⚙

فى نهاية حارة « العنيد » كان زقاق العرافة . كان هناك سلم خشبى يلف ويدور بين جدارين متصدعين .

هناك قالت أم الخير :

« آدى أخيراً بيتك المبروك يا مبروكة ! اللى با عدنا عنك المشوار الطويل ! آه ! ياريتنى اعيش فى ضلك على طول يا مبروكة ! » .

كان السلم يوصل إلى ممر دائرى غير مسقوف ، بضع درجات محدودة . وكان فوق السطح بَضع حجرات .

وبدأت أم الخير تتحدث عن ذلك المسكن « المبروكة ! » ثم قالت مبتسمة وهى تتجه إلىَّ مشيرة إلى أحد الابواب المفتوحة ، قالت :

« اسمعى ! أهيِه بتتكلم !»

ثم وقفتْ :

سمعت صوتا مختَّبا ينطق الكلمات : كلمات تلو كلمات . كان يتوقف بعد أن ينطق العبارة . يبدو أنه كان ينتظر أن تُملى عليه عبارة أخرى جديدة .

« شجرة التين بتاعتك مبتطرحش إلاَّ الشوك – قالت المبروكة . أحسن لكى تراعيها ، لازم تدخل فى صوابعك ... لكن إسمعى كويس ،

هتلاقى فى بيتك تينة واحدة بدل ثلاثة !! هتكون مستخبيةً ولازم تدورى عليها كتير . ولما تلاقيها هكون مبسوط زيّك تمام وهحُط وردة فى ودنى ! »وسكت الصوت .

حينذاك قالت أم الخير : « ممكن ندخل دلوقتى » أدخلتنى أمامها . وجدت الحجرة واسعة تكتظ جدرانها بأشياء غريبة : هدايا قدمها زوار الشيخة ، أقفاص حمام وطيور كانت مصفوفة على الأثاث الأسمر المنقوش ، وغزالة محشوة بالقش تقف ثابتة على خزانة مبرقشة ، وبرج خشبى به ريش ملون كالأزهار مثل لعب الأطفال و زهرية خزف مكسورة بجوار صفيحة الزيت .

كانت هناك أدراج لا تبوح بما فى داخلها من المناديل الحريرية الملونة ، وكذلك سلسلة ساعة وعقود زجاجية هناك أيضا قطعة عريضة من القماش على الجدار الداخلى . كان جزء من القماش مرسوم عليه زجاجٌ واقف فى ظل شجرة وكان الجزء الأخر فيها يتوارى خلف جزع نخله حولها حوض ضخم .

وتمتمت أم الخير تقول :

« أظن أن المبروكة هى اللى دهنتها ، الشجر عامل زى الشجر اللى بصحيح . العصافير اللى فى الصالة بتقف عليه وبتعشش »

وأسرعت الشيخة فى الكلام مرة ثانية ، وجلست أم الخير بجانب الباب . لم يكن قد أحس بوجودنا . كنت أرى الشيخة من ظهرها ، وهى جالسة على « دكّه » منخفضة والنساء حولها منحنيات مثل كومة سوداء مائجة .

كانت هناك أشياء أخرى فوق أرفف قديمة وعلى حواف النوافذ وقطع الأثاث الخشبية وعلى الأرض . كانت الحيوانات تسعى فى حرية : جدى وعنزة وكلب ودجاجة ريشها مندوف وديك رومى . الكل يروح ويجىء بين الصناديق الفارغة وعلب الصفيح الفارغة التى كانت تغلق بملابس النساء .

سكتت الشيخة واستدارت نحونا فجأة فعرفت أم الخير رفعت يديها فجأة ولوحت بهما ترحيباً بها : « إيه ياأم الخير . هو أنتى ياصاحبتى ياغالية ؟ الوقت من غيرك طويلة ، ثم غمزت بعينها . إيه اللى تعبك وجابك ؟ »

غمزت أم الخير اليقظه وأفاقت من غفوتها ، رفعت يديها تعبيراً عن أمتنانها : « مش عشانى ، ده عشان الست »

دعتنا الشيخة إلى الجلوس بالقرب منها وصاحت بصوت قوى :

« يامراتى ، أنتى فين ؟ هاتى « دكّه» للست !

دخلت امرأة مكتنزة ترتدى قميصاً أبيض كالشوال يصل إلى كعبها . كانت يداها غارقتين فى الصابون والماء توقفت عن الغسيل وجاءت بالمقعد من الحلوة وطلبت من الحريم مساعدتها فى ذلك .

قالت الشيخة : « قرّبى منّى » كان تفضيلى على غيرى فى الدور يضايقنى ، لكن النسوة كانت تساعدنى . كن ينظرن إلى بابتسامة عطف وأشفاق .

– « أنا مش هخلّيكى تنتظرى كتير يدوب على ما تستريحّى » ، ثم توجهت الشيخة إلى أم الخير التى جلست بين النساء اللآتى إنكمشن ليفسحن لى المكان .

قالت الشيخة : « نورتى الدار ياأم الخير » ، « إنتى دايما جامدة زى الضّرس ! ضرس بصحيح . جيلبة من زمان ! ربنا يخلكى ! »

كان وجه أم الخير يشع نور البهجة عندما ارتفع صوت من آخر الصالة :

« ياأم الخير إنتى مكانتك غالية فى القلب « المبروكة » ، ربنا يطول فى عمرك ! »

هنا علا صوت الشيخة قائلا :

– « هُسْ ! سكوت ! بسْ دلوقتى ! الدور على مين ؟ » قالت النساء

كله فى صوت واحد : « إيوه دور نبوية »

– الشيخة : « هاتى منديلك يانبوية ! »

كانت نبوية تجلس بين النساء . وأخذ منديلها ينتقُل من يد إلى أخرى إلى أن تناولته « المبروكة » وقربته من أنفها وكرمشته بيدها .

كانت الشيخة رجلا فى الخمسين من عمره ، يلبس ثوبا أبيض ، يجلس على كنبة مستطيله ووجهه مثل بالونه مستديرة ، أما عيناه فمثل رأس الدبوس ، وكان أنفه بمثابة عين ثالثة تحتها شارب مستدير أبيض . كانت شفتاه ورديتين قد فرغ لتوه من أكل ثمار التوت وكان يُبقيها مبتلَّة على« الدوام حين يمرر عليها لسانه بحركة خفيفة .

وكان أحياناً يشد أنفاساً من الشيشة التى « تكركر » عند قدميه .

وكانت هناك سيدة حريصة على ألا يفوت دورها .

كان لثوب الرجل فتحه مستديرة عند رقبته بطريقة تظهر صدره الأبيض الناعم . حول رقبته ثلاثة عقود من زهور الياسمين يشمها وهو يتلفت من وقت لآخر وحين تذبل زهور الياسمين ، كان ينزعها من حول رقبته ويلقى بها خلفه . يلبس فوق رأسه عمامه قطنيه مطعمة بخيوط من الحرير مختلفة الألوان . وتتحدث النساء إليه كما لو كان سيدة ، لم يكن غير الشيخة « راقية »

ذهبت إلى هناك كى أحكى عما شاهدته لتسمعه الأخريات وحتى تخفف من آلامى عن كاهلى . وكان ذلك فى بعض الأحيان كافيا .

قالت الشيخة إلى المرأة التى شمتً منديلها : « إسمك نبوية ، مش كده ؟ »

– إيوه .

– « قولى عليكى السلام يامبروكة! »

– عليكى السلام يامبروكة !

– إيديك يانبوية ضعها كلب ، كنتى بتعطفى عليه ، نابه طويل زى سكينة المطبخ ، وأنا هبطل مفعولها ، هخَليها طرية ليّنه زى الكرشة ، و٨هتقدرى إنتى تاكليها ، إنتى فاهمة كلامى يانبوية ؟

– إيوه ياست الشيخة .

– عندك عيال يانبوية ؟

– أيوه ياست الشيخة .

– أنا عارفة .

– « الله يخليكى ياست الشيخة » : قالت النساء فى صوت واحد .

وأخذت الشيخة ورقة من الأوراق المتناثرة على الأريكة وقطعتها إلى نصفين متساويين وشرعت تكتب كلمات غامضة بقلم تبلله بطرف لسانها وفوق شفتيها ، وبعدها مزقت الورقة بأصابعها .

– « حطى دى تحت باطك وبين جسمك والقميص وفى مدة ثمانية أيام هتحسّ بالراحة »

وأخذت قصاصة الورق المكرمشة تمر من يد إلى أخرى صاحت نبوية قائلة : « ربنا يخليكى لنا ياست الشيخة . » ورددت جميع النساء ذات العبارة .

وتحسست نبوية جيبها ثم أخرجت بضع قروش من جيبها العميق .

– « دى أول مرة تيجى . إدفعنى النوبة الجاية »

– « معايا اللى يكفينى ياست الشيخة » وأعطت النقود لاحدى السيدات

– الشيخة : « زى ماتيجى ياأختى على كيفك » رددت جميع النساء : « ربنا يبارك فيكى يامبروكة » ثم دعون من أجل نبوية وطالبها بالصبر والتحمل .

قالت الشيخة : « الدور على مين دى الوقت ؟ »

– على أمينة !

– إنتى فين ياأمينة ؟

– أنا هنا يامبروكة ! »

كانت أمرأة فى مقتبل العمر ، خائفة العينين . وقد كشف غطاء رأسها الذى نزل عن شعرها الأسمر الفاحم اللامع . كانت بجوار الاريكة

– إيه اللى جابك ياأمينة ؟

رددت جميع النساء فى صوت واحد : « انسرقت حاجتها ! »

– سكوت .

– إدينى منديلك ياأمينة وقولى : « عليكى السلام يامبروكة ! »

– عليكى السلام يامبروكة !

وأنا سامعكى !

– سرقونى وإن عرف جوزى هيضربنى .

– سرقوا منك إيه ؟

النسا غ بتاعى أربع عقود دهب ! بدورّ عليهم من يومين فى كل مكان فى الدار ، فى التبن وفى جزمة حماتى !

– جزمة حماتك ؟ »

وطأطأت الصبية رأسها ولم ترد .

غمغمت الشيخة : « حماتك بتكرهك وعايزة آبنها يطلقّك . »

كانت المرأة تنكس رأسها والنساء ينظرن إليها أخذت كل واحدة تندب حظها . كن ينكمش إلى أن صرن مثل كومة سوداء . ثم أدركن أن الأمر سيعود إلى نصابه حين بدأت الشيخة فى الكلام .

– « جايه من بعيد ، لكن أيديكى مليانة . إنتى شايفة البودرة دى ، أنا هحط لكى منها فى المنديل ، ولما حماتك تنام حطى ياأمينة شوية من البودرة على شعرها ، وشوية كمان على شعر حماكى . وقبل نهاية الأسبوع هترجع العقود بتاعتك . بيتك مطيّن ياأمينة زى نعل الجزمة ... لكن هيكون فيه سكة ميّه عشانك ! إنت فاهمة اللى أنا عايزة أقوله ياأمينة ؟ سكة ميّه !

– متشكرة ياست الشيخة . ربنا يجازيكى بالخير !

– متخافيش ياأمينة ... حياتك هتكون هادية زى جناح الحمامة . وكلامهم معاكى هيكون زى العسل !

– ربنا يحميكى ياست الشيخة ... يامنوّرة !

– لا ياأمينة متجبيش حاجة ...أنا مش عايزة حاجة منك . إنتى ضاع منك الدهب بتاعك . يادوب أسبوع واحد . بس لما تيجى هاتى لى سمانه بيضه معاكى ، عشان مراتى تحمرها وتحشيها باللوز !

– ربنا يباركى فيكى ياست الشيخة ! بس خدى دى . دى مربة ورد ، خديها ، ربنا يخلّى لسانك ينقط دايما الشهد !

ونهضت أمينة عائدة إلى منزلها ، لم تكن عيناها هى عيناها . كانت تشع الأمل والبشر ، وانحنت تلاطف الجدى وهى فرحة ثم قبلت رأسه وبينما تغادر المكان توجهت إلى الشيخة قائلة :

– « جه دورك . تعالى قربى الكرسى »

أفسحت النساء لى المكان ونهضت أم الخير تساعدنى . كنت أساءل نفسى عن سبب تواجدى فى المكان . سألتنى الشيخة : « عايزة منى إيه ؟ »

أم الخير : لازم تساعديها !

– اسمك إيه ؟

– سامية ...

– إدينى منديلك ياسامية وقولى « عليكى السلام يامبروكة »

– عليكى السلام يامبروكة !

– وأنتى بقى عايزة منى إيه ياسامية ؟

قالت أم الخير : لسّه مخلفتش . معندهاش عيال بعد ٨ سنين من جوازها .

رددت النساء فى صوت واحد : ياميلة بختها ! معندهاش عيال !

قالت الشيخة : سكوت ! خلّينى أفكر فى مشكلتها »

أغلقت عيناها وزمت جفونها وشرعت فى الكلام مؤكدة على كل حرف والنساء يرددن وراءها فى همس :

– سامية ! ياسامية ! إنتى عندك عقدة من حديد فى قلبك . فى قلبك عصفور ميت ياسامية ! يمكن أبنك يصحىّ العصفور ده من تانى ... أبنك جايلك ياسامية زى ما أنا شايفه قدامى ، إبنك جاى ! »

تنهدت أم الخير تنهيدة إطمئنان وموافقة ، بتنهيدة عبرت جو الصالة . كان الموقف يوحى بأن جميع النساء يوافقن على ما يقال ويرضين عنه حتى أنى بدأت أعتقد ذلك وأصدق ما أسمعه واراه .

قالت الشيخة : « أنا هاخذ ثلاث بودرات قبل ما أفتح عينى .

– هتخلفى ياسامية ... هتخلفى » قالت الآخريات .

– سكوت ! فى الدوشه دى ، أنا بحس بأن فيه طرد نحل طاير بينكم .

– أنا هعمل ثلاث قراطيس ورق ياسامية ، فى كل قرطاس بودرة لونها غير الثانية . إحرقى البودرة وأطلقى البخور فى البيت واحدة وراء الثانية ..وتقدرى دلوقتي تروحى بيتك مطمئنة . وعشمى إن خطاويكى تفتح الزهور ! »

أسقطت من يدى قطعاً من النقود فى علبة من الصفيح صدئه كانت بجوار الأريكة . وأخذت النساء تشير إلىّ بالتحية ، تحية ودّ واشفاق . وظلت الشيخة فى صحبتنا بنظراتها إلى باب المنزل . وحين كنا لا نزال نهبط درج السلم سمعناه هذه الكلمات :

- « القمر جه عليه تراب عشان خاطرك يازنوبة . واحد من عيلتك بيمشى فى سكك ضلمة ، ضلمة زى ظهر الجاموسة . ويتهيأ لى إنه إبنك يامسكينة ! لكن فى خلال .....»

## ( ٨ )

ظلت الرغبة فى إنجاب صغير تطاردنى ، وبعد مرور عامين لقيامى بزيارة الشيخة ، لم أكن فى الحقيقة أنتظر و قوع المعجزة لكننى كنت بلا شك متألمة لاهتزاز إيمان أم الخير بثقتها العمياء فى أقوال الشيخة وأفعالها .

لم أعد أراها إلا عند الضرورة ولم تحدثنى عن شىء ، وكنت أحاول أن استنتج ما تريده لكن الذى يتجلى على الوجوه قليل ولا يمكن للانسان أن يعرف على وجه التحديد مايكنه له الآخرون فى صدورهم من المحبه أو الكراهية .

أحيانا تكون المشاعر مشوشة بلا مقدمات .

وكم من الموانع والحواجز بين البشر حتى بين المتحابين ! ورغم أننى فرغت من تحطيم تلك الموانع والحواجز والتكلفات التى قامت بيننا ، كانت هناك أمور تظهر فجأة لتأخذنى على غرة دون أن أتمكن من السيطرة عليها .

فكل ما ينبثق عن تصرف أحمق أو غفلة غافلة يكون فى النهاية حاملا للسم الفاسد وربما القاتل ، وإن لم يستطع المرء أن يتصرف بفطنة وذكاء ، تنفصل عنه الأشياء برمتها ، ساعتها بيتوقع كل منا داخل ذاته .

إن أم الخير ساذجة ولا شك ، فحينما لقيتنى قالت : « لازم إنتى معرفتيش إزاى تحرقى البخور وتستعملى البودرة ، عشان كدة

محملتيش لغاية دلوقتى . لكن أنا هروح أقابل الشيخة واشرح لها كل حاجة »

قلت لها : « إيوه لازم معرفتش أحرق البخور »

كنت على يقين أنى لم أعمل شيئا وأنى ألقيت البخور وراء ظهرى ولم أستخدمه و لكنى لم أشأ أن أقول لها شيئا يبعدها عنى .

وكنت أرغب فى الوليد من أجلى ، أحس أنه سيفتح الطريق أمامى لأعرف معنى الحياة وطعمها . كنت أتمنى كذلك أن يقربنى من أهل القرية ، دعامة حياتى بسرائهم النقية وسلوكهم الفطرى .

وكان بطرس يضرب بكفه على صدره قائلا إنه يُطهر الأرض بأعماله من دنس الشيطان . كان يعمل أشارة الصليب قائلا : « إن عقيدتى تقوى من عزيمتى » وكان فى الوقت نفسه يقول أنه تخلى عن الاتفاق الذى أبرمه مع تاجر جاء يشترى المحصول ليرفع عمولته إلى الضعف. كان يقول : « ده أبله وعبيط ! » . كان يصلى بشفتيه، ويقول كلاما لا ينبع من فطرة قلبه . يقول دائما :

« لا مهر ولا مولود ! ، لو ماكنتش مسيحى لرميتك فى الشارع ! »

وكانت أمال تأتى لزيارتى يكلفها عمها أبو منصور باحضار الجبن فأناديها : « ياعصفورتى ! » تأتى مرفرفة بجناحيها فى « حجرتى ، وحين تتركنى ، كانت تترك الملل والفتور فى صحبتى .

قد اشتريت لها قطعة قماش ذهبية اللون من بائع متجول ورغم أنى لا أجيد الخياطة إلا أنى اجتهدت وفصلت لها فستانا يناسبها . كانت فى عينى حينما تلبسه كعصفور يحرك رأسه ، كانت مثله كذلك وهى تحرك رأسها وتفرك يديها ، كنت أحب أن اتأملها فى ثوبها الذهبى الذى يلمع حتى فى ضوء الشمس الخافت والذى يعكس أضواءه على الجدران تجلس القرفصاء على الأرض وذراعاها حول ركبتيها . وتطلب

منى أن أحكى لها الحكايات وأرى فى عينيها أشياءأخرى غير النداء ، أشياء يمكن أن أتناولها بالحديث .

ولأول مرة عرضت علىَّ لعبها وعرائسها فى تلك السنة ، كانت قد عملتها من الطين بيديها ، عرفتها بعد أن أخرجها من القميص فى زهور : « أنا اللى عملتها ! » .

كانت اللعبة تشبه عمها أبو منصور وهو جالس مستغرق فى النوم وكأنه جزء من ثوبه . بمقدورى أن أغير ملامحه وهو يغط فى النوم دائما فى ظل شجرة الزيزفون حينما أمسك بذلك الشىء البدائى ، أحس بنشوة تغمرنى ، لم أشرح لها سبب تلك النسوة فى أول الأمر وأخيرا قلت لها : « إنتى هتخلّفى ياأمال ! »

لم أكن أدرى مابعد كلماتى . كنت وكأنى أدركت على الفور أن أمال تملك الرد على الحياة وأن من واجبى أن أساندها وأن أقدم لها العون والمساعدة . وكانت أمال تفتش فى أفكارى بنظراتها الجريئة .

❂❂❂

بدأ المشهد دون مقدمات مع بطرس .

أخذ يردد على مسامعى : « إيه فايدتك لو مخلفتيش ولد ؟ ! »

نظرت فى عينيه بجرأة وقلت : « وإذا كنت أنت السبب ؟ » فقد صوابه ورد بانفعال : « أنا ؟ أنا ؟ قوليها مرة ثانية ! »

وضعت كل حقدى فى نظرتى وأرسلها قذيفة إليه ، كما لو كنت أريد أن أسقط كرامته المزيفه أو أبعدها عنه .

قال ثانية : « قوليها تانى !قوليها تانى ! » فقلت : - وإذا كنت إنت المسئول ؟ »

رفع يده وهوى بها فوق وجهى . ورغم ذلك لم أتراجع . كنت سعيدة بتلك الصفعة . لقد جاءت أخيراً لتؤكد سلوكه الداخلى الجلف الذى كان من الصعب إظهار طبيعته وتعريته .

وحتى ذلك الوقت ، كان حقدى موزعاً على أشياء كثيرة لكنه تجلى فى تلك اللحظة وتحددت معالمه وظهرت دوافعه .

أى شىء يمكن أن نوجه إليه اللوم بخصوصه ؟ لكن النساء الآخريات تمكنت من فهمه . ألم يتزوجنى دون أن يقدم مهرا لى ؟ ألم يخدعنى ؟ كنت فى تمام صحتى وكان هذا واخى للعيان وما دون ذلك كان ضربا من الهستيريا والخيال !

وأخيرا جمعت كل شجاعتى وكتبت رسالة إلى والدى بذلك : « لقد ضربنى الرجل ياأبتى ! »

عن أى شىء كان يمكن أن أكتب إليه من قبل ؟

« هذا الرجل ياأبتى يعاملنى كما يتعامل مع أى شىء آخر غير البشر . الحياة ياأبتى تمر وتمر دون أن أعرف لها طعما . لم أحس بالسعادة لحظه ... أيامى ثقيلة ثقيلة ..ولياليى كذلك . لماذا نتخاذل أمام السعادة ولا نساعد الآخرين ياأبتى ؟ ظمآنة ياأبتى ظمآنة ...أريد أن أبلل شفتى ، إن شبابى يخبو ويتوارى مع مرور اللحظات ! »

وضحك والدى على كلمات رسالتى قبل أن يلقى بها فى سلة المهملات ، لكنى كتبت له فى المرة الثانية :

« لقد ضربنى الرجل ياأبتى ولا بد أن تحضر لتأخذنى ! »

كانت علامة الغضب جلية فى عينى بطرس وفوق جبينه . كان يهتز فوق قدميه مثل كومة من الملابس على وشك السقوط من فوق عمود . أخذ يردد هذه العبارة :

« المفروض كان الواحد عمل كده من زمان ! لغاية دلوقتى أنا كويس معاها ! »

سوف اكتب له فى رسالة : « ضربنى بطرس ياأبتى وسيضربنى ! تعال تعال ولا تتأخر ! تعال لتأخذنى ! »

كان يصيح : « لازم تحترمنى ، هعرفك الأدب إزاى ! فاهمه ؟ . حين سيستسلم أبى الخطاب سيأتى من فوره ليبعدنى عن هنا لأعيش فى كنفه .

كان بطرس يصيح : « الواحد ما يقدرش يتحمل واحدة مجنونة طول العمر خلىّ بالك ، أنا ممكن أحبك ! »

ولم يتأخر رد والدى الذى كان ذاعقل قانونى . لقد أخذ يتسلى تجمع الأحكام ويستخلص منها الدروس ليقدمها إلى . قام بلصق الأحكام على ورقة بيضاء ثم وضعها فى مظروف أرسله إلىَّ .

وبعد ذلك قال :

« يحق للرجل أن يضرب زوجته لتسير فى الطريق الصحيح ، بشرط ألا يتعدى حدود الإصلاح والتهذيب » وأضاف فى نهاية خطابه الذى كتبه بعناية :

« لا تثيرى غضب زوجك وتذكرى دائما أنك كنت صلبة الرأى عنيدة حتى وأنت عندنا فى المنزل ! » والدك الذى يحبك . »

❂❂❂

عندما أحسست بالجنين فى أحشائى تكتمت الخبر أول الأمر كنت لا أريد ألا يعرفه بطرس ولا رشيدة التى كانت تحدثه عن ذلك الانجاب الذى تأخر . كان ذلك الحمل المتأخر يغمرنى بأحساس من السعادة العميقة . ولم أكن فى الوقت نفسه أتمنى ذلك الحمل حتى أنى وددت ألا أخبره عنه ولو باشارة .

وكانت أول أنسانه عرفت الخبر هى أم الخير . ردت المرأة الطيبة تقول :

« أنا كنت عارفه أن عمر كلام الشيخه ما يخيب ! » ثم رجعت بضع خطوات ووضعت يدها على وسطها ونظرت إلىّ من قدمى إلى رأس وقالت :

« خلاص بقيتى أم ! »

ومرت الأيام ولم تعد إلى الحديث عن الحمل مرة أخرى . كانت تعلم أنى أتكتم الخبر ، وكانت تشبعنى بنظرات العطف والرضا

بعد ذلك أخبرتُ أمال التى أجهشت بالبكاء أول الامر . كانت تخشى أن يؤثر ذلك على حبى لها ، فركعتُ على ركبتى أمامها لأخبرها أنها أبنتى الأولى وأنى لا يمكننى أن أنساها . كنت أشعر بالروابط التى تربط بيننا ، تلك الروابط المتينة التى تتجاوز حدود الكلمات .

لقد تجاوزت أمال الثامنة من عمرها ، كان التراب فى أظافرها وأصابعها جافة مثل عيدان الحطب ، لا تزال تلعب باللّعب والدمى التى عرضتها على فى زهور وكانت تقول : « إيدي بتاكلنى لما معملش حاجة »

وحينما تتحدث عن عرائسها تأتى بسمتها من الزعماق تردد علي الدوام « بحبّها ! بحبّها اكثر من إخوتى ، اكثر من عمى أبو منصور ! » . ولم تكن تلك التماثيل الطينية شيئا ، لكن أمال كانت تكتشف فيها عالما آخر .

سوف تنجو أمال لأنها تحب ، وحبها واضح لا يتخفى ، انها تحب حبا أبديا مثل الدماء التي تعيش وتسرى فى مجرى العروق . أُحس أكثر منها بذلك الحب ، هناك لحظات أحس أثناءها بمعنى الحياة ، لحظات كنت خلالها أفكر فى إنقاذ أمال .

كان من الضرورى أن أقدم لها العون .

وهكذا رحلت ذات المساء سعيدة مطمئنة إلى أن عاطفتى حيالها لم تصبْ بالوهن أو الفتور .

وأخير أخذ الوليد القادم يفرض وجوده ، فلم أستطع أن أخفى

حضـوره عن بطـرس إلى أبعـد مـن ذلك ، فأجـاب قـائـلا : « أخيرا آن الأوان ! »

❁❁❁

قال بطرس : « هيكون ولد ! »

وفجـأة قفزت فى مكانى كما لو كنت قد استطعت أن أشاهدهما أشاهد بطرسين يتقدمان نحوى .

و حاولت أن أتأمل مـا أراه وأن أتصـور ولد مثـل كل الأطفال الذين يلعـبـون تحت نوافـذى كل يوم ، وهم يلهـون بالحـصى وقطع الخـشب والطين ، حطب القطن وعيدان الذرة . حاولت أن أشجعه ليتقدم نحوهم ويلعب بينهم ومثلهم بعينيه السوداوتين والبسمة فوق شفتيه . كانت الصورة تكبر ثم لا تلبث أن تنطمس معالمها .

وأخيـرا بدأ بطرس « الثـانى » يسـيـر نحـوى بقدمىْ والده وفى بدانته المضحكة .

وحـينمـا كنت أحس أثناء الليل بالضـيق وحين كنت أتقلّب فى الأوجاع ، كنت اسمع صراخ بطرس وولده ، اسمعهما يصرخان سويا بأنى السبب فى ازعاجهما وعدم نومهما . أراهما واقفين قرب السرير بعـد أن يكونا قد أضـاء ! « الوناسـه » التى تعطى ضـوءا ! باهتـا من خلال قماش « الأباجورة » الحريرى . ينحنيان سويا نحوى ، كل يرتدى قميص الليل الأبيض الذى يصل إلى منتصف الساق ..

كان كل له نفس الأنف ونفس الوجه المكتنز اللامع من أثر النوم . أكتافهما متهدلة كالذى يحمل حملا ثقيلا فوق ظهره ، وكانت ظلالهما تسقط فوق ردائى كانا يقولان : « إيه اللى فيكى ؟ إيه اللى بيكى ؟ منعانا من النوم ليه ؟ »

قال بطرس : « هيكون ولد ! »

طلبت من رشيدة أن ترسل لى صورة القديسه « تريز» لأعمل صلوات وبخور لمدة تسعة أيام لغاية يوم الوضع . « هخلّى اللمبة منورة طول الوقت ! »

ووصلت الصورة فى صندوق خشبى مع شموع مبططة حتى تطفو فى إناء به بعض الزيت . كانت الصورة ذات إطار ذهبى ، أمر بطرس أبا سليمان أن يعلقها على الجدار وأن يضع تحتها منضدة مرتفعة ، وأن يضع الشمعة فى إناء . ثم قال :

« لازم تنوّر على طول . وغيرى الزهور كل يوم . »

عكفت على مباشرة الشموع وتغيير ماء الزهور كان القديسة وجه فتاة صغيره سرعان ما ألفته . وكانت تلك الطقوس والشعائر من أجلها تسبب لى الضيق دون أن أدرى سببا لذلك .

وكلما كان بطرس يدخل الحجرة ، يجلس تحت الصورة ويشرع فى ترديد صلوات وابتهالات واضعا كفيه على صدره . اقف وراءه وأصرخ فى داخلى :

« ياريت يكون المولود بنت ! »

صرخ عالياً فى داخلى كما لو كنت أتآمر على ابتهالات بطرس ورجاءاته ، أتآمر خصوصاً على استمرار لهيب الشموع الذى كان دوام وجوده فى الحجرة يسبب لى القلق .

« ياريت تكون بنت ! ...ساعتها ستكون مثلى وبالأحرى ستكون الصورة التى وددت أن اكون عليها . حتما ستكون جميله ! سأجعلها قوية ، انسانه طيبةً طيبةٍ ، تغاير التى تقدم للإنسان الأشياء برائحة زنخة . تلك الأشياء التى تبقى طويلا داخل الدواليب .

لكنى هل سأتمكن من أن أجعل من ابنتى تلك الإنسانة التى أتمناها ؟ هل سيكون بوسعى أن أعمل منها شيئا وأنا سجينة فى الحجرات الثلاث ؟ مع هذه الفكرة ، راودتنى كذلك فكرة الهرب .

كنت أصحو فجأة من نومي والعرق يتصبب فوق جسدي . وفي لحظات أعايش شيئا معينا ثم لا ألبث أن أعيش غيره .

كنت أحمل أبنتي وأهرب . فشجاعتي قادرة على عمل أي شيء . ترد من الأعماق فتنهار جميع المخاوف القديمة الغريبة . الأسئلة تتزاحم في رأسي . إلى أين الطريق ؟ لست معي مال . وأبي وأخوتي لا يتقبلون أفكاري ، كما أنه لا يوجد من يتيح لي فرصة العمل والتحرك . سيلحقون بي في الطرقات هنا أو هناك . وربما يتهمونني بالجنون ويأخذون ابنتي . وأخيرا ... يجُمدني الخوف فأستمرّ مكاني .

كنت أتخذ القرار ثم لا ألبث أن أتخذ غيره ، أتحمس تماما لقرار عزمت على تنفيذه كما لو كنت لم أفكر في سواه ، لكن غيره سرعان ما يطغى ويلقي عليه ظلاله .

كانت هناك دوافع كثيرة ، دوافع تُحتم الهرب ، وآلاف غيرها تجعلني أبق في مكاني بلا حراك . اختلطت الاسباب وتضاربت الأفكار وتلاطمت مثل موج البحر ووصل الأمر بي إلى أن ساءلت نفسي :

« أنا فين ده كله ؟ »

وحين ولد الصغير لم أكن اتخذت القرار بعد .

❂❂❂

أضحت كلمة « الخلاص » حقيقة .

كان كل شيء يغني في داخلي . لقد تخلص عقلي وتحرر قلبي ، صرت التقط الانفاس بانتظام ، أحس أني أسبح فوق مضاجع في الهواء لا يعترضني شيء ولا يلمسني أحد . وتوقف الزمان عن المسير علي حافة جزيرة ذات أهداب مشعة ، ودفء جميل يسري في ساقي متجها إلى صدري الذي صار منشرحا .

وكانت رشيدة قد وصلت قبل الوضع بأيام . تستجيب لنداءاتى وتلبىّ كل طلباتى كما قال بطرس لى . ياله من إخلاص !

« لما هيتجى رشيدة هتكون أعصابى هادية ، وهتعمل كل حاجة ! »

وجاءت رشيدة . وفى رفقتها ثلاث حقائب ، أتت لتقيم معنا لمدة شهور : « دى هيه اللى هتربى ولدى ! » ، « أنا وأختى أفكارنا واحدة »

وفور وصولها إرتدت قميصاً رمادياً يظهر أعلى ذراعيها وأخذت تعطى أوامرها للقابلة . وكان بطرس يقول : « رشيدة هى اللى هتختار الداية ! »

كانت تثور ، تحرك الماء فى الطشت وتقول : « القطن على اليمين فى الرف الأخرانى ... هاتى سبرتو . » ، آدى كمان حتة قماش ! »

وكانت هى التى زفت الخبر بسرعة : « دي بنت ! » ثم ألقتها فى لا مبالاة دون أن توجه إلى الحديث .

لم يكن هناك ما يمنع سعادتى ، فقد أحسست بوجود صغيرتى فى صف رغم أننى لم اكن قد رأيتها بعد . صرت أستسلم لأحاسيس معينة ، أتأرجح فى الهواء الذى تتناثر فيه ذرات المطر الخفيفة وأوراق طويلة تربت على جسدى . كان العرق يغرق شعرى من منبته ، وجبينى رطب طرى مثل أجنحة الحمام الناعمة الملساء ، كانت أناملى تتحسس أمواجا رقيقة تجوب ذراعىْ وساقىْ .

كم تمنيت أن أرسم تلك البسمة على وجهى !

خلعت رشيدة قميصها الرمادى المفتوح من الظهر وهى تبرطم : « إزَّاى هقول الخبر لبطرس المسكين ، أقول له إنها ولدت بنت ؟ » واقتربت من السرير واقفة وركبتاها تحفان بالمرتبة ، إنحنت إلى أن مسّت رأسها صدرى وقالت وهى تصوب إلىَّ نظراتها الحارة : « أنا ماشية على

طول ، هاخد القطر الليلة ، مش هقعد احمل خيبة أمل بطرس المسكين أكثر من كده ... مادامت بنت ، انتم مش عايزين مساعدتى فى حاجة ! » .

كانت إبنتى بجوارى ، ابنتي التي لم أكن قد رأيتها بعد . لم أكن وحدى علي الإطلاق . كنت منقسمة إلي قسمين ، كنت سأحب وأُحِبُ فى الوقت نفسه .

تجمدت الدموع في عيني لتهبني مسحة من الجمال ، كنت جميلة منشرحة الصدر ، وأخذت أشدو بين فكىَّ .

ودون أن تزيد رشيدة فى الكلام ، غادرت المنزل دون أن تغلق باب الحجرة ، لم أسمع حديثها إلي أختها الذى كان فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح بطرس باب حجرتى بعنف كما لو كان يريد أن ينتزعه من المفصلات وأخذ يصيح :

« أنا خارج أشم الهوا ! » ونزل وخطواته تدك درجات السلم .

وسرعان ما صار وقع أقدامه مسموعاً يختلط بوقع عصاه التى يدق بها فى عصبية . كان صداها يدخل حجرتى ويستقر بها .

وكانت طفلتى تصيح بجوارى . سأضمها قريبا إلى صدرى . السعادة تتردد بين جوانحى وبطرس لا يزال يدق الدرابزين بعصاه قائلا : « بنت ...بنت ...» كانت تحركات ذراعيه القوية تهز كتفيه هزاً ، بينما رشيدة تخطو بسرعه لكى تلحق به .

كانت تسأل نفسها عما يمكن أن تقدمه إلى أخيها من العون أخوها « المسكين ! » كانت العصا تدق درابزين السلم ، تضرب الزهور . كانت كل ضربة من ضرباتها ترن فى حجرتى رنيناً يصم الآذان ، لكن الرنين لم يكن يصل إلى مسامعى .

# الجزء الثالث

( ٩ )

أحسست ببعث جديد مع ابنتى « مى »

فانسلخت عنى الأحزان كما ينسلخ الجلد الميت عن جسم الأنسان . وصار جسدى يتغير هو الأخر ، صار رقيقا رهيفا ، كيف إنتزعه قسرا من تلك اللامبالاة التى أحالته إلى كتلة تتجه به إلى الهاوية .

وهكذا أصبح أقل جزء في داخلي يعيشى فى حيوية ، كنت أحس بقدمىً على الأرض وبالهواء حول رقبتى وبجسم صغيرتى « مى » فى أحضانى أحس به وأحنو عليه ، كنت أستشعر ذراعيها حول ساقى ورقبتى كذلك .

وعادت الحياة إلى الجوامد كذلك . بفضلك يا « مى » اكتشفت أن لسانى معسول الكلمات . بفضلك أضحت الأكواب كالقوارب التى تداعبها ذيول الاسماك الزاهية الألوان . بفضلك أيضا صرت أرى الغابات جذوعها مختبئة بين ثنايا الستائر كالمزامير التى تنفخ فيها الرياح .

وبفضلك يا « مى » أضحت الأبسطة مُدنا غريبة يسكنها عالم العباقرة والجان ، يرقصون فيها جميعا طوال الليل . لقد ضمر البرج البرونزى المذهب من أثر الصاعقه لكنه بفضلك يا « مى »لا يزال يتذكر اسماء السحاب .

حينما فتحتُ عينى طفلتى كنت أدرك أني أفتح عينيها وحدها لكن عينى كانتا تتفتحان هى الأخرى .

لقد خاب أمل أم الخير وغيرها من النساء لأن الغير لم يكن ولدا . وقد خشيتْ أول الأمر أن تمس مشاعرى فلم تبارك الصغيرة ، لكنها

حينما لاحظت السعادة تغمرنى والبهجة تعلو وجهى سألتنى عن حالتها وطلبت رؤيتها . وحينما أقتربت منها ووجدتها أنثى قالت :

« البنات ...مفيش غير البنات ! هوّه فيه واحد بس من ولادى خلانى مبسوطة زى بنت زينب ؟ ربنا يخليها ليه إبنتى من روحى ! »

كانت تضحك وتفرك يديها ، تضحك بصوت تحسبه قادماً من بعيد تتلفت يمينا وشمالا حتى تبتسم الصغيرة . وكانت تقول :

« هتضحك ! ... شوفى هتضحك ! ...» وكانت تكشر وتقوم بحركات لتثير انتباه مى ، تحملق بعينيها وتخرج لسانها الرمادى ، تحرك ذراعيها وثوبها كما تفعل الأمواج ...

وحين ابتسمت « مى » تنهدت أم الخير وقالت :

« آه ! ... ضحكة العيل بتهدىّ الأعصاب »

وظلت تزيد فى أداء الحركات ، تكشر وتكشر ، تقطب جبينها لتسترجع أغانى الطفولة إلى الذاكرة ، وحين استعادت بعض العبارات بدأت تهز ساقيها وتغنى :

يمكن شعرى يشيب
وايدى تتملى تجاعيد
وابنى يجينى
يملا من الشمس شايفه .

كانت تغنى بصوت مبحوح وابنتى جالسة ترهف السمع ، وتزحف إلى أعمدة السرير :

القمر صاحبه وحبيبه
كل العصافير مستنياه
عشان كده قلبى دافى .

ظلت أم الخير تغنى فكست السعادة أرجاء الحجرة .

السعادة ! لقد اصبحت تلك الكلمة - آنذاك - من حقى أنا الأخرى ؟

كان بودى أن أتناول تلك الكلمة ، كما أتناول الثمرة فى يدى وكما ألمس أى شىء آخر تنعكس صورته فى مرايا كثيرة إلى درجة جعلت السعادة تأوى بصعوبة بالغة إلى قلوب الآخرين .

أرادت أم الخير أن تعلم صغيرتى أول كلمة تقولها ! قالت :

« خليتّنى أعلم لك ٩ عيال ، ١٧ عيّل . أنا متعودة ! » لم تكن « مى » فى أول الأمر تستجيب .

كان يخيل إلىَّ أنها تقاوم دفاعاً عن الحرية التى لا توجد خارج أسوار الكلمات . وكانت أم الخير ترفق نبرات صوتها ، وتبعد شفتيها ، تشغل منا باللعب .

وأخيرا بدأ جسمها ينتصب أخذت عيناها تراقبان ما ترياه لكن فمها لم يكن يخرج غير انفاسها .

صارت أم الخير تأتى إلى المنزل كل صباح ، كانت ابنتها زينب تضع الخضراوات تحت منضدة المطبخ ثم تنزل حسب أوامر أمها :

« إنزلى إنتى ، أنا راجعة وراكى عليطول ، لازم أشوف البنت ! »

وحين نطقت أول كلمة ، توجهت أم الخير إلىَّ :

« شايفه ! أنا متعودة ! »

كانت بسمتها تبدد تجاعيد وجهها . ونامت « مى » على الفور . ركعت على ركبتى أتأملها ، كنت أتحسس بشفتى ذراعيها المسترخيان على المفرش الجديد . كان قرطها يتدلى على صدغها ، اما فتحتا أنفها منتفختان عند خروج الزفير ثم تعودان من جديد ، وكان فمها يكاد يكون مفتوحا . كنت أضع خدى فى راحتها وأضغط عليها لأحس بملمس أصابعها المنفرجة الفاترة . اما بطرس يقول :

« بتعملى إيه يابايخة ؟ ! انتى كده هتصحى البنت ! »

كان صوته صوت شخص قادم من العالم الآخر . وبالرغم من ذلك لم يحدث أن استيقظت « مى » من نومها بسبب ما كنت أفعله .

❂❂❂

وانقضت ثلاث سنوات أو يزيد قبل أن تلتقى « مىّ » بالأعمى فى طريق شجيرات الزينة .

كان طريقاً قصيراً نلوذ به هرباً من حرارة الشمس اللافحة . وكانت أوراق الأشجار الباسقة الغامقة الخضرة ترسم أشكالا متتابعة على الأرض ، أشكالا مثل أصابع النساء . وكانت « مى » تجرى وراء هذه الظلال التى يحركها النسيم ، تطلبنى أحيانا أن أفرك لها إحدى الأوراق بين يدىّ حتى تشم رائحتها الجميلة .

كان الدرب هادئا تسير فيه إحدى النساء من وقت لآخر وهى تحمل جرة مملوءة بالماء فوق رأسها ، كما كان يمر به في بعض الأحيان أحدى الباعة المتجولين أو رجل يركب حمار ! وفوق ظهر الحمار خرج أبيض كبير وفى قدمى الرجل مداس لا يكاد يعلق بهما .

لمحت الأعمى من عصاه لأول وهله ، كانت « مى » تلعب بحجر أسود ناعم الملمس ، أخذت تلقى به بعدأن عثرت عليه ، تلقى به بجوار جزوع الأشجار ثم تجرى وراءه لتلتقطه . وما أن تعثر عليه حتى تصيح فى فرح وسعادة ثم تأتى لترينى إياه .

كان الأعمى يتقدم بخطى وئيده واثقة ، كان طرف عصاه لا يكاد يلمس الأرض ، وحينما اقترب منى توقف لحظه ورفع يده إلى صدره ثم قال : « بنتك كبرت أنا سامعها بتجرى »

قلت له : « عمرها أربع سنوات » وأضفت أقول : « الزمن بيجرى »

– « أنا عارف أن الزمن بيجرى ، اكن ربنا يحمى لكى البنت دى ! »

لم أكن قد رأيت الأعمى منذ أن قمت بزيارة القرية لأول مرة . لكنى كنت أراه بعيداً عندما أفتح النافذة أو أخرج للنزهة فى الحقول . أتأمله وهو يسير مرتفع الهامة . وأتوق إلى التحدث معه لأنى أحسست أنه يفهمنى جيداً

كان لديه ما يحتفظ به لنفسه عن الكثير مما حوله ، وكان تحفظه هذا يدفعنى إلى عدم الاستسلام ، لكن المبادرة بالحديث لا بد أن تكون من جانبه ، وكان هو على دراية بذلك جيدا

كان يعرف تعلقى بأمال وتمسكى بها ، لهذا استدار نحوى وقال : « إنتى نورتى أمال ، وانتى سبب هناها »

واقتربت « مى » ولمست جلبابه وأخذت تتحسس عصاه . لم تسترع عيناه المفزعتان انتباها . أخذ يدعو لها قائلا :

« ربنا يخليك لأمك . البنت دنيا تانيه للبنى آدم ! »

وكانت لا تزال تتحسس عصاه حينما وضعت الحجر الأسود فى يده وقالت : « إرميه بعيد »

وانحنى الرجل وألقى به تحت قدميه حتى تستطيع أن تلقيه أسفل جذوع الأشجار . وكانت تجذبنى فى بهجة : « بُصىّ ! بُصىّ » والأعمى لا يزال يردد

« ربنا يخليكى لأمك ! ربنا يخليكى ! »

بعدها سار فى طريقه متمنيا لنا يوما سعيدا و لكنها قالت له : « إنت ماشى ليه ؟ » فرد قائلا :

« طريقى طويل ولازم أمشى على مهلى »

– ليه ؟

– عندى أصحاب كثير بيقابلونى فى الطريق ، وأن مشيت على مهلى مش هيكون عندى وقت أتكلم فيه معاهم . »

- ردت « مى » تقول : « آه ... طيب » وأعطتنى الحجر لألقيه لها لكن الوقت كان قد أزف ، فحملتها بين ذراعى وبدأت اسير هرولة إلى البيت .

كان جسمها هادئا كالسمانة المستسلمة ، وقرطها يلامس فمى . كلما أجرى تضحك وتصيح : « إجرى كمان ! إجرى ! »

كان أشجار الأوكالبتوس وراءنا بعيدا ، « مى » نشوانة من الفرحة تدير رأسها لتتأمل حقول القطن . كان شعرها يداعب وجهى . وأخيرا بدا لنا المنزل من بعيد فصاحت تقول : « بسرعة ! بسرعة ! »

كم كان ذلك جميلا ! العرق يتصبب ساقاى خفيفتان . كان وزن « مى » فى ذراعى يجعلنى اكثر قدرة على الحركة . وتمنيت أن يتوقف الزمان عند ذلك ، عند تلك اللحظة وألا تتعدى حياتى ذلك المشوار .

وحين أقبل المساء أخذ بطرس يعلق على تلك الفسحة بسخرية : « إنتى سخيفة ! بتعملى زى ما يكون عمرك عشر سنين ! » فأجبته دون أن أسمع صوتى :

« أيوه ! أيوه ... » وتركت المكان لو كانت لا تزال فى ذراعى ، وكما لو كنت لا أزال أشم رائحة الأشجار وجسم « مى » يستعد لان أحمله وفتحة أنفها تعلو وتهبط ، وقرطها يداعب وجهى وهى لا تزال تقول : « إجرى بسرعة ! إجرى !

❂❂❂

أمال ...

كانت أمال تجىء فى بعض الأحيان بعد الظهر حينما يكون بطرس قد غادر المنزل . تأتى شوقا لرؤيتنا . وكان والدى قد أرسل إلىّ فوتوجراف ومعه بعض الاسطوانات ذات صوت متحشرج أبح .

كانت « مى » وأمال تتعانقان وتطلبان أن ندبر الفوتوجراف ، وأن أحكى لهما الحكايات . كانت أنغام الموسيقى المشوشة ترسم المئات من الصور . وكنت أقول : « خلوٌ ! بالكو ، هنا بيت من فى آخر الشارع ، والطيور منوّراه بأجنحتها ..وأقتربُ من المنزل الزجاجى !

كنت كذلك أقول : « الطريق مش طويل تحت رجلينا ، بيجرى لوحده ، وأنا مش محتاجة أمشى وأتحرك ..وورا كل شجرة قطن بنت صغيرة ، أنا لابسه جيبة طويلة عليها أوراق زى ورق شجر الموز ، والنبات الغيرة ماسكة فيها والطريق بيشدهم معايا ....»

كانت أمال تجلس بجوارى « ميّ » على الأرض ، كل واحدة تمسك بيد الأخرى وتقبلها « كمان ... كمان ! ...» أذكر كل ما يمر بمخيلتى من الحكايات ، وكانت سعادتى تمتزج بكل ما يحُسان به من البهجة . كنت أؤلف حكايات جديدة ، أجذب أصابعى التى أحس بها وكأنها تود أن تلمس شيئا بعيدا عنها . ربما كان ذلك شبيها مما كانت أمال تريد أن تمسكه . تهتف البنتان : « كمان ! كمان! » وكتبت أقول : « بصوا ! » « هناك فاكهة بتقع فى كل مكان ، مش عارفة بتقع منين ، بحاول أمسكها بإيديه وأحُطها فى الجيبة ، بنادى فى كل مكان عشان حد يساعدنى ، فيه فاكهة كثير ، فاكهة لكل الناس . بنادى . بنادى بكل عزيمتى . بنادى ومفيش حد « سامعنى . ومحدش جاى ! »

كنت أرقص قصتى و« مى » وأمال يعيشانها . وحينما كنت أتعب فى النهاية أجلس لأستريح . ساعتها كانت أمال تفتش فى قميصها وتخرج منه تمثالا وتقول : « ده عشانك ! »

كان التمثال لأم وطفلها ، جسداهما متلاقصتان . وجه الطفل يطل من بين ملابسها كنبات صغير يبزغ من سطح الارض . وكانت أمال تقول :

« عمى أبو منصور شاف التماثيل اللى عملتها وقال إنى يقلدّ خلق ربنا ، عشان كده ، أنا ملعونة وهروح النار »

وحكت لى بعد ذلك أنه ألقى بجميع التماثيل أرضا ثم كسرها وأخذ يصيح : « لازم آكسرها . انتى هتجيبى للبلد المصايب . » ومنعها أن تعمل تماثيلا أخرى من حديد . لكنها أضافت تقول محملقة فى وجهى : « أنا هعمل تماثيل من حديد . »

وتقطب جبينها فى حزم وإصرار : « أنا هعملها على طول ، ومحدش هيقدر يطلع من رأس كل اللى فيها ! »

ولم تكن أمال لتستسلم . كان عمرها يزيد على اثنتا عشرة سنة ، وبدأت عزيمتها تزداد رسوخاً . أحس بالحرارة تسرى فى جسدها النحيل . ففى مسلكها وقورة رزينة عنيدة . وكانت قوية القلب نشطة اليدين .

كم استمتع بالنظر إليها ، فهى التى وددت أن أكونها لأهدم الحواجز المزيفة ،أتخطى العقبات مع مرور الساعات وبلا ملل أو يأس ، وأن أظل كذلك حتى تنهار تلك الحواجز والظلال الحالكة .

ولسوف أحب أمال ، وليس بمقدورى أن أفعل غير ذلك . سأزيد فى حبى لها ، وليس بمقدورى إلا أن أكون - إلى حد ما - جزءًا من الأرض التى نتمناها ونريدها ونود أن نستصلحها .

وحتى « مى » كانت كذلك مفتونة بها عندما تتكلم ، « مى » التى غالبا ما تمنيت لها أن تكون أشبه بأمال منى . كانت كلتاهما سعيدة بالأخرى .

بدت « مى » سعيدة أيضا بقرطها الذهبى ، وأمال بثوبها الذى لم تكن تخلعه حتى تفتق تحت إبطها فرتقته ، وحتى قصر عليها فأطالته بقطعة من القماش خضراء اللون .

وكلما كانت أمال تسير ، كانت تمشى « مى » وراءها ، تصحبها إلى مسقط السلم لتقول لها « مع السلامة » وتنزل أمال السلم دون أن تنظر تحت قدميها العاريتين .

كانت تخطو خطوات ثابتة فوق درج السلم .

بعدها بقليل يصعد بطرس السلم بخطى ثقيلة رتيبة .

۞۞۞

وهكذا كنت غاية فى السعادة حتى أن الأمور الأخرى أضحت في نظرى هشة هزيلة . كانت صور « مى » وحدها تملأ مخيلتى .

لكن حينما يرخى الليل سدوله ، ومع رغبتى العارمة فى تخيلها ، تداعب صورتها مخيلتى ثم تغيب ، ولم ألبث أن استشعرت صعوبة فى تذكرها ، وبدأ الأسى يقف حائلا بين وجهها ووجهى . وصرت اسعى إلى أن أذكر نفسى بأسمها لأظل على الدوام أردده ، و صرت كذلك أحاول أن أستحضر إحدى تصرفاتها ، ومع ذلك ظلت الصورة غائبة بأكملها عن مخيلتى .

كنت أستمد حياتى من ذلك الحب ، أتجمع حوله . وكان حقد رشيدة وثقل دم بطرس وعدم أكتراث أهلى ، كل ذلك فقد معناه ، فقد كان تفكيرى منصبا فى حب آخر ، حب آخر لم أعرفه من قبل .

لم يكن ذلك الحب أنتـهـا كا للحرمات ، فالحب عظيم إلى ما لا نهاية ، عظيم كانَ لرجل أو طفل أو للآخرين . حب الأبداع والخلق الذى هو سمة أمال البارزة ، الإجابة كانت هنا ، وهنا فقط ، الحب هو الرد الوحيد على الهموم التى تضعك أمام ذاتك .

لم يكن فى رأسى ذلك الماء الراكد ، فقد حركه الحب وجعله سلسبيلا ، حركة حب « مى » الذى أرسته فى قلبى المكلوم .

ومع كل ذلك ، لم تكن السعادة بالدرجة التى ينتشى لها الفؤاد كما لو كان القدر قد رتب لها أن تكون بقدر . فمع طلوع الشمس أراد : « سعيدة أنا . سعيدة فى غمرة السعادة » وعندما اسمع صوت صغيرتى واستشعر ذراعيها حول رقبتى ، أردد على مسامعى : « أنا

في غمرة السعادة » وحينما كانت أمال تقف قريبة وتحدثها في رقة ولطف اقول لنفسي « سعيدة أنا ، أنا في غمرة السعادة ! »

كانت كل لحظة بالنسبة لي جديدة ، تختلف عن الكنوز التي يخبؤها المرء في خزائن مظلمة ليضمن بها حياة مطمئنه حسب ظنه . أنفش سعادتي وأقوم بحلجها لأتأمل دقائقها ، أقلبها يمينا وشمالا بين يدي دون أن أغفل أي جانب من جوانبها .

كانت تلك السعادة وراء قلقي ومصدره في بعض الأحيان . يخيل إلي أن خطرا يتهددها ويحسم فوق صدرها . وأخيرا استقر ذلك الخوف وثبت وأخذ يطاردني حتى في منامي .

لازلت أذكر واحداً من تلك الأحلام .

كنا نسير أنا ومي ، فأمسك بها في يدي وحولي الأشجار وكأنها دائرة ، وحول الأشجار عشب أخضر ، أخضر شديد الخضرة لم أعرف مثله . الماء عليل والجو جميل . على أذرعنا واضح مثل صفاء ماء بحيرة صافية .

وأخذت الأشجار تطول وتطول ، لم تكن أوراقها متزاحمة كثيفة ، كالمطر الخفيف الذي يرسله نسيم دائم . وتبدو حبات المطر كفراشات غير مرئية ، فراشات تداعبنا بأجنحتها .

كان كل شئ هادئاً . لم أكن أنظر إلى « مي » يكفيني أن أحس بوجودها في يدي فأحنو عليها .

فجأة شاهدت رجلا بين جذوع الأشجار ، يرتدي حلة من الصوف بيضاء جديدة ، ينتعل حذاءً أبيض ويليس رباط عنق أبيض . كان طويلا نحيفا كالشمعة . لم يسبق أن رأيت وجهه من قبل ، أو مع الأقل لم أحمل له في الذاكرة أية صورة من الصور من قبل . لكن شعره المسترسل كان أسود لامعا .

أخذ يشير إلى بيده الطويلة كي أقترب منه ، أشحت بوجهي عنه في قرف بالغ . لم أعرف ما في اللون الأبيض من مضمون ، وماهية لون شعره الأسود اللامع إلا أن ذلك اللون كان يسبب لي الغثيان والاشمئزاز .

كنت أحس دائما بأن يد « مي » في يدي ، ومع ذلك عشت في تلك اللحظة بعيدة عن نفسي لخطوات . وأخذت أبنتي تبتعد عني فجأة . أخذت تقترب من الرجل واسلمته يدها . ما عدت أقدر على الأحتفاظ بها والأبقاء عليها . رأيتها تمد يدها إلى يده ، تتقدم نحوه في وداعة ورقة ، لم أستطع حيالها شيئا .

ظلت تتقدم نحوه ، يخيل الي أنها تسير فوق الأرض وليس عليها . وبقيت قدماي خاملتين ويداي خامدتين . وحينما استقبلت يده يداها ، هرولا معا في الفضاء خلف ساتر الأشجار ....

(١٠)

حينما بلغت « مي » السادسة من عمرها أصبحت تكاد تقربني في هيئتي . وقد نجحت في إقناع بطرس ذات يوم بالسفر معا إلى المدينة انشتري ملابس لها .

أنزلنا أبو سليمان عند محطة القطار الذي يصل إلى المدينة خلال ساعتين . وفي ديوان القطار جلست أبنتي على ركبتي . كنت أتصور أني أترك ورائي عالما بأسره . وكان القطار يسير بسرعة وصوته يصم الآذان .

أضحت القرية ،حجرتي وصوت بطرس ، أضحى كل ذلك بالنسبة لي نوعا من الذكريات التي يرد طيفها إلى الذاكرة . أحسست أني راحلة لأعيش حياة جديدة ، جديدة تماثل الحيوية والنشاط اللذان وهبتهما لي ميا .

واستسلمت للسير خلف تصوراتي .

كنت أطل من النافـذة لألقى نظرة على الطريق ، أتمنى أن يزيد القطار من سرعته وأن يترك وراءه كل شئ ، أن يسير عبر قارات الدنيا ولا يتوقف على الاطلاق . واذا كان ولا بد أن يتوقف ، فليقف عند بلاد بلا ذاكرة !

لكن القطارات تسير فوق قضبان لها نهاية !

نزلت سلم القطار الصـغـير وقـفـزت أبنتى من ذراعىّ . وخرجنا لنتعرف على المدينة . كانت تشبه مدينة طفولتى إلى حد كبير . أخذنا نسـير امـام المحـلات ونقف أمـام الواجـهـات . سـاعـتـهـا أحـسـسـت بالحرية ،معى أبنتى ، بينما ظل بطرس هناك . هناك بعيدا .

وفجـأة صـار جوده بالنسبة لى ضرباً من الخـيـال . وكنت وابنتى نسير معا بخطى رشيقة ، ضحكاتنا متواصلة نشوانة

⚙⚙⚙

ولم يمض أسبوع إلا وكانت « مى » طريحة الفراش إثر إصابتها بمرض الحـمى . وفى أول الأمـر كـانت تقـبل السـرير كـمن يقـدم على القـيـام بمغامرة جديدة . كانت اللعب حولها مكدسة فوق السرير : العروسة والدب المنوف ومكعبات الخشب والأكواب الصغيرة .

وكانت تحدث عروستها قائلة :

« إحنا مسافرين فى المركب ، والمركب هو السرير بتاعى ! »

لم أكن قلقـة فى البـداية و لكن الأسـبـوع أشـرف على الأنـتـهـاء والحـمى لا تزال مـتـشـبـثـة بأوصـالهـا ، فطلبت من بطرس أن يسـتـدعى الطبيبة فقال لفوره :

« مفيش حاجة ، الموضوع بسيط وهيعدّى »

وتحسس إبنتى وربت على خـدها وقـال :

« البنت دى مش عيانة ! مش كده يا « مى » ؟ »

ابتسمت « مى » : « أنا مش عيانة » وأخذت توجه إلىّ أسئلة متلاحقة وطلبت منى أن أحكى لها الحكايات وحينما سمعت خطوات أبى سليمان راحت تناديه :

« يابوا سليمان » جاء وخد يدها الصغيرة له والبسمة فوق شفتيها .

بعدها بوقت قصير أنتابنى القلق . لم تغيرّ « مىّ » ثوب عروستها منذ يومين . لم تكن تبدى تبرما من الألم ، ومع ذلك تتأوه أثناء الليل بصوت خفيض .

راحت الحمى تلازمها ، وأخذت ألاحظ هالة من الظلال حول عينيها وفى راحة يديها . كان جسدها نديا على الدوام .

قال بطرس أنذاك : « السبب فى كده إننا سافرنا ، والبنت مش متعودة على جو المدينة ! » أخبرنى أنى لا أفكر إلا فى نفسى ، « وأدى النتيجة ! »

وهذه المرة أكدت عليه : « هات الدكتور يابطرس » ، « الحال هو الحال من مدة طويلة ! »

- « طيب هتصل به » وتمتم متبرماً :

- « الواحد ميقدرش يستريح أبدا » وإنحنى على « مىّ » يقول : « إيه ! ابتسمى لبابا ، إبتسمى »

كررت عليه الطلب ثانية : « لازم نطلب الدكتور النهاردة يابطرس ! » وكررت : « النهارده ! »

ولم يرد وسمعته ينزل السلم ويفتح الباب المؤدى إلى المكاتب ويدخل ثم انغلق الباب .

وعدت إلى حجرة « ميّ » لكنى تسمرت عند عتبتها فجأة ، تسمرت عندما نظرت إلى سريرها ، رأيته كبيرا اكبر من حقيقة ووجدت وجه الصغيرة يتوه بين الأغطية والفراش .

كان جو الحجرة مظلماً . أغلقت نوافذها إلا من شعاع خفيف ضعيف يسقط على لعبها المكومة على الزغب الأزرق فوق السرير . كانت كربوة صغيرة . وأخذت تلك الفكرة تتكرس فى صدرى . لم أكن أميز لعبة عن الأخرى . وكان الضوء شاحباً حتى فى الظلام . كومة .

ظللت قرب العتبة دون أن أجرؤ على التقدم خطوة ، بدت اللعب وكأنها كومة من الأحجار ، راحت تبعث الخوف فى نفسى . ، كان الشعاع المضيىء فوقها بمثابة مثلث تدور فيه ذرات الغبار ، كان ذلك الشعاع يلقى على التّل انطباعا رماديا كيئبا .

لقد سمّرنى الأسى فى مكانى ، ومع ذلك كان لا بد أن أبعد ذلك الكرب وألا أستسلم له . لا بد من أن أرفضهُ على أن غير معقول وخرافى ، أن أمسك اللعب وأن أرفع رأسى « ميّ » وأضعها على الوسادة . لم أكن أعرف غير شىء واحد : لو تأخر الطبيب فلا فائدة ، ساعتها سيضيع الأمل .

كان من المحتم أن أهرول إلى بطرس وأن أصيح فيه من جديد . عبرت الحجرتين والدهليز ، ونزلت السلم وهذه العبارة على شفتى : « لازم الدكتور ! لازم الدكتور ! »

أدرت اكرة الباب بقوة وجريت فى الصالة دون أن أعبأ بدهشة الموظفين . كان بطرس جالسا أمام مكتبه يبحث عن أوراق فى الدرج . وفور أن دخلت صرخت فيه : « دلوقتى يابطرس ، لازم تنادى الدكتور ! حالا »

- « لكن أنا لسه واصل ! إدينى فرصة ! »

عاودت الصباح فيه .كنت أسمع حركة الكراسى وحديث الموظفين : « هيهٌ البنت عيانة ؟ ! قال أحدهم

الثانى : « العيال الصغيرة دايما تجيلها الحمى ، الحرارة الجديدة اللى بيقولوا عليها ! »

الثالث : « دايما الأمهات بتكون قلقانه ! »

وأخذ بطرس يضرب كفيه وصاح فى أحدهم قائلا :

« إعمل لنا اثنين شربات توت مثلج واقفل الباب وراك . »

وحينما خرج الموظف قال لى : « شربات توت مثلج يهدى أعصابك ! » لكنى لم اهدأ . وظللت على المكتب متكئة فى مواجهته أصيح فيه : « لازم يجى الدكتور حالا »

رفع بطرس سماعة التليفون فى هدوء وأخذ يفكُّ السلك ويرتبه قائلا : « أنا هقصر السلك ده لأنه طويل . أقعدى بس ! أقعدى ! »

- كان يحدثنى كما لو كان يتحدث إلى امرأة مجنونه ! »

وجاء أبو سليمان حاملا كوبين من الشربات على صينية من الألومنيوم . رفضت أن أشربه ، فأشار بطرس إلى الخادم أنه يضع الصينية ويخرج .

وأمسك بسماعة التليفون وأخذ يرتشف الشربات . كانت بقع الحبر الأخضر متناثرة فوق غطاء المكتب . وكان جزء من إطاره المعدنى قد إنخلع فى عدة أماكن .

كنت لا أزال واقفة وهو يطلب الطبيب ، انفجرت فى البكاء قلقا على وحيدتى الصغيرة . كنت أرى أنَّ الثانية حينما تمر لا يمكن تعويضها . وفجأة أجاب صوت على بطرس الذى قبل أن يتكلم ، أخذت من السماعة بسرعة لكن قال : « أنتى مجنونة ! »

ثم دفعنى وأخذ السماعة من جديد

أخبروه أن الطبيب فى زيارة أحد المرضى وأنه ربما يصل فى المساء . « طيب قل له يحضر فى المساء ! »

وحينما فرغ من الحديث فى التليفون إتجه إلىّ قائلا :

« هدىّ نفسك والاّ اخلىّ رشيدة تيجى . ولو كتبت لها هتيجى . ممكن نعتمد عليها لكن أظن إن احنا تعبناها قوى ! »

تخيلت رشيدة منحنية على طفلتى فتسمرت مكانى لهذا كان لزاما علىّ أن أظل هادئة

- « لا لا أنا هادئة يابطرس ، بس لازم تفهم إنى خايفة على البنت . « مىّ » بتتحسن دى الوقت وأنا رايحة لها . إنت فاهم ! أنا هادية قوى دى الوقت »

وفى الحجرة المجاورة مررت بين صفين من المناضد ، وهمّ الموظفون بالقيام حينما سرت أمامهم . قام ابراهيم الذى كانت له شامة بجوار عينه ، قام ورافقنى إلى درج السلم ثم قال :

« العيال دايما بتجى لهم الحمى . دى هيهٌ السخونية الجديدة ، اللى بيقولوا عليها . »

وجدت « مىّ » نايمة فى سريرها . كانت تتنفس بانتظام أخذت اللعب التى سببت لى الفزع وفرقتها عن بعضها ، لقد سببت لى تلك اللعب هلعاً وذعرا رغم أنها لم تكن غير اللعب ... مكعب من الخشب ، دب منتوف الشعر ، منزل نوافذ خضراء ... أخذتها جميعا ووضعتها داخل الدولاب .

كنت خائفة من لاشىء ، فليست اللعْب غير اللعب على الدوام ، ورغم ذلك الأمراض تصاحب الأطفال . الأطفال هم الذين يمرضون ويشفون . كنت هادئة وكان علىّ أن أصبر وأنتظر حتى اليوم التالى ، يوم وصول الطبيب .

وجــاء الليل وأيقظ الهــواجس فى داخلى . جلست على أحــد الكراسى بجوار سريره ، كانت يدى تلتقى بيدها فوق اللحاف الأزرق الناعم وبطرس يغط فى نوم عميق بالحجرة المجاورة ، كان شخيره عاليا مسموعا .

لم يتحرك ساعات الليل .

كنت قد وضعت لمبة الجاز على الأرض لأبعد الضوء عن عينى صغيرتى ، وكنت أستطيع أن أراها فى ذاك الضوء الخافت ، أجاهد نفسى وأقنعها بأن يقظتى الدائبة يمكن إن تمنع وقوع البلاء . وحينما يغلبنى النعاس أصحو فجأة لأعاتب نفسى على تقصيرها . كان يخيل إلى أن خضورا ما صار محتوما فى تلك الحجرة ، وأن هناك صراعا قد بدأ بالفعل بينى وبين ذلك الحضور .

كنت حينما أصحو من غفوتى أحس بالقوة تسرى فى عروقى فأمسك بيد الصغيرة لأتحسس نبضها . وأخذت أنفاسها تتردد من غير أنتظام . كنت أود أن أطمئن إلى أنها ناعسة وأنى أخوض المعركة وحدى فجندت كل قواى وركزتها فى نظراتى إليها لتدافع عنها ضد كل مكروه .

وحينما استقيظت فى الساعة السادسة ، أدركت أنى نجحت فى إنقاذها من شبح تلك الليلة .

❂❂❂

ولم يصل الطبيب إلا صبيحة اليوم التالى . فحص الطفلة وشخص المرض بأنه تيفود خبيث ثم جلس وأخرج ورقة من حقيبته الجلدية السمراء ليكتب الدواء ، لكنه بعد ما بحث فى جيوبه كلها عن القلم لم يجده وقال : « لازم نسيته »

ذهبت من فورى إلى الصالون وأحضرت له ريشة ومحبرة ثم أرسلت أبا سليمان إلى بطرس ليخبره بأن الطبيب سيرحل بينما كانت « ميّ » تبكى بمجرد أن أدير لها ظهرى . لم يكن بمقدورها أن تستغنى عنى . وحينما أقترب من باب تروح عيناها تنادينى .

أعطيت الريشة للطبيب ، كان يجلس واضعا ساقا على ساق ، بعث بقفل حقيبته اللامع . شرع يكتب الدواء مؤكداً على أن مرض التيفوئيد خبيث ، وأنه ما كان ينبغى أن نتأخر فى آستدعائه إلى هذا الحد ، أما وقدحدث ذلك ، فلا بد من تنفيذ توصياته بدقه وبالحرف الواحد وأن نحضر الدواء فى الحال . تنفيذها بالحرف الواحد .

حاولت أن أبدد مخاوفى بهذه العبارة : « هتخف بالرعاية » قلتها بصوت عال . ولم يسمعنى الطبيب حين أومأ برأسه بطريقة آليه بينما اتجه نظرة إلى خارج الحجرة ، كانت نظرته يثبت ستارة النافذة فى مكانها كما لو كان يحاول أن يتعرف على نوع القماش الذى عملت منه .

وفور خروجه قرأت الورقة وارسلت فى طلب الأدوية . وبدأت فى رعاية إبنتى رعاية مركزة . كنت أضع علامة حمراء على درجة حرارتها ، أضعها على ورقة كرتون كبيرة فى حركة سريعة محددة .

وضعت المفارش البيضاء على المناضد ولبست كذلك ثوباً أبيض . كنت بذلك أريد أن أتآمر على المرض ، وأن أكيد له

ومع ذلك ظلت « ميّ » لا تعبأ باللعب ، وصارت تقبَّل رعايتى لها باستسلام لا يتلاءم مع سنها . كنت أحاول أن أحكى لها القصص والحكايات فى كلمات كانت ترد إلى شفتيّ ببطء شديد البطء . وكنت أجد صعوبة فى تكوين الصور والتخيلات . وصارت تدير رأسها وتقول : « لا . لا . لا ... » كما لو كانت نبرات صوتى تسبب لها الآلام .

وأخذ الطبيب يتردد بانتظام . وذات يوم قال : إنه سيحضر معه زميلا ليتشاور معه فى أمر المرض . كنت أحس بأن أعصابى تخذلنى خصوصا مع ظلمة الليل ، وأصبح قلقى يتزايد كذلك بالنهار حتى صرت أنهض من الكرسى فجأة . صرت أتفحص وجه أبنتى وأنا واقفة ، أقرب خدّ من فمها .

وأصبح نفسها حاراً محرقاً ، كنت بالليل أتمنى أن يأتى الصباح ليبدد مخاوفى وفى الوقت نفسه أخشى أن يقربنى من نهاية مفزعة .

هكذا مرت تلك الآيام . صرت لا أذكر شيئا ، كانت « مىّ » فى كل مكان لا أعرف غيرها . صرت لا أعرف هل عاد الطبيب أم لا ؟ ، هل كان بطرس بجوار السرير أم لا ؟

كنت أسمع صوت أم الخير لكنه كان كالضباب : « روحى معاكى » وفى ركن من الصالون هناك زفرات ونحيب . ربما كانت أمال ؟ أظن أن أبا سليمان أحضر إلىّ سلة ذات صباح ، أرسلها الأعمى إلى إبنتى « مىّ » لا أكاد أتذكر كل ذلك ولا أعرف غير ذلك .

ورغم ذلك كانت الأيام طويلة . ثقيلة .

كانت « مىّ » تنظر إلى صباح أن مت موتا حقيقياً نظرت إلىّ مبتسمة وأنحنيت إليها لآخذ تلك البسمة من بين شفتيها قبل أن تتركنى إلى الابد

ooo

تجمعت النساء أسفل السلم ، جلسن يبكين الواحدة بجانب الآخرى . وبهذه الطريقة تكونت كتلة سوداء جامدة لا تتزحزح ، أخذت تنوح وتولول ، تنعق كالبوم وتموء كالقطط ، وظل الحال على ذلك لمدة يومين . وبعدها جلست النساء فى صمت فوق دزج السلم . وحين كان

أحد يريد أن يصعد السلم ، كن يفسحن له الطريق ، لم ينطقن بكلمة طوال يومين .

ولم تتحرك أم الخير ولا إبنتها زينب ولا رتيبة ولا الأخريات إلى أن مر وقت طويل من الليل . جلسن القرفصاء على درج السلم فى حراسة أحزانى .

أما أنا فمكثت جالسة فى حجرة « مىّ » على الكرسى . ، جلست أمرر يدى فوق ذراعى الكرسى . ولم يستطع أحد أن يزحزحنى من المكان .

وكان بطرس فى الصالون يتلقى العزاء من الناس :

« دى إرادة ربنا » . كانت تلك كلمات النساء المؤمنات بقضاء الله وقدره . وقضت النساء ليلة فى رعاية الطفلة المتوفاة .

قال بطرس : « أعمل إيه مع ربنا ؟ ، أنا راجل متدين » وقالت إحداهن : لازم تستريح . مفيش فايدة من الأحزان . بالعكس ، صحتك هتروح » وقالت أخرى : « دى كانت ملاك ! ربنا خدها ليه ؟ » وقالت غيرها : « وأنا كمان ماتت منى عيّله ، لكن ربنا عوضنى »

جلست أم الخير صامتة على درج السلم وزينب وآمال والأخريات كذلك . اما أبو سليمان فذهب إلى بئر السلم وانحنى فوق الدرابزين ليشارك هو الأخر فى ذلك الصمت .

وظل بطرس يردد : « أنا عملت إيه لربنا عشان ياخد منى بنتى ؟ أنا راجل متدين « أخذ يبكى بصوت مسموع . اما النساء فراحت تقول :« إنت راجل مؤمن وإرادة ربنا نفذت . » قالت أحداهن : « ماهو أبنى كمان مات بالتيفود ! »

- « أحد الحاضرين : « لازم تشد حيلك ، مش هينفعك إلا صحتك ! »

وكنت إطارد تلك الضوضاء و« الدوشة » بعيدا عن أذنى وأردد :

« حياتى ! حياتى ! إنتى فين ياحياتى الصغيرة ؟ »

لم أعرف ما أقوله .

وهكذا صرت وحيدة فى حجرة « مىّ » التى لم تعد « مىّ » . واسعة تلك الحجرة ، فارغة تلك الحجرة ، هنا تترك أرجل الكرسى الذى أجلس عليه ظلالا باهتة على الأرض .

سمعت الأصوات تطلب لقائى فقلت لا »

ما زالت الأصوات هناك ، تثير الذكريات ، كان لكل من تلك الأصوات أو جاعه ، كل كان له موتاه .

وشرع بطرس يشرح كيف أن هواء المدينة يضر بالأطفال فوافقته الأصوات . هل تصل تلك الكلمات إلى مسامعى ؟ بالطبع لا . إنتى بعيدة هناك ... ومع ذلك لست وحدى ...ففى أسفل الدرج هناك نساء يتعهدن حراسة أحزانى دون أن ينطقن بكلمة منذ يومين .

( ١١ )

وصرت لا أرغب في الحياة . أكانت حياتى غير تلك الأيام التى تعاقبت بلا هدف ؟ صرت أتعذب إلى درجة الملل والضيق ولم يعد بوسع النوم أن يهدىء من حالتى تلك .

وإرتدى بطرس لباساً أسود . كان يدير وجهه فى عصبية حينما أحاول أن أتذكر « مىّ » كما لو كان يريد أن يتجنب ذكراها القاسية .

حاولت أن أتعلق بلحظات السعادة وأن أذكّره بها فكنت أحس بالخوف كما لو كنت أحوم حول رأسى « مىّ » مرتكبة بذلك خطأً فى حقها كان فى داخلى أسى لا يبدده شىء وكانت الأيام تتوالى وتتراكم فتخنق الماضى دون أن تمنحنى الراحة والهدوء .

وظلت أحزانى متأججة

وددت أن أتخلص منها ، كنت أعرف أعمق مكان فى مجرى النهر . وكان الوقت وقت الحصاد وبطرس يعود متأخراً . وتركت المنزل ساعة الغروب .

سرت فى الطريق الواسع الذى يحف بالنهر فى اتجاه المدينة . الأرضَ مثيرة للغبار فى أول الطريق ، السماء تلهبها بقع حمراء . لم أرغب فى التفكير فى شىء أو فى إنسان أياً كان . حتى أم الخير ، استبعدت حزنها من عقلى . أستبعدت أمال هى الأخرى فكنت بذلك أخدع حبها وسرت لألقى حتفى ، كلما كنت أسير ، كان هلاكى يبدو عاديا ومقبولا ، ذلك الموت الذى كرهته .

موت أمى التى أختطفها وأنا لا زلت صغيرة ، موت أبى الذى ظلمنى ، موت « مىّ » الذى غير إهانة وسيَّة ، موتها الذى أختطفها وهى فى عمر الزهور ، موت ذلك الرجل الذى احترق مثل طلقة من رصاصة بندقية ، كل تلك الميتات !

نعم . صار الموت فى تلك اللحظة أمراً بسيطاً وسهلاً .

وصرت أردد فى حماس : « أمال ! ياأمال »

أردت أن أهبها آخر أنفاس لتنضم إلى قواها وتهبها المزيد من الحياة . كنت أتطلع إلى أن يكون بوسعها أن تنمو وتكتمّل .

وحين غربت الشمس وأمس الأسفلت رطباً لا يغلق بالنعال ، صارت كل خطوة أخطوها تحدث صوتاً معيناً . وسرت وسط الطريق دون أن أعترض مسير سيارة . وكان الماء أكثر عمقاً عن يسارى وتحت الكوبرى الحديدى البعيد .

كنت أسير بسرعة ، صدغاى يصطكان . جريت فى الطريق وفى مخيلتى أنى استطيع أن أصل طرق العالم . كنت أسمع طرقات الحذاء على الاسفلت . وكانت أضواء الشمس الأخيرة تصبغ جسد الكوبرى .

أحسست وأنا أسير بطرقعات حذاء آخر يطاردنى صداها ، حذاء ليس ملكا لأحد . كان فى رأسى ضجيج وضجيج ، أنه ضجيج الموت .

ربما لم يكن غير ضجيج الموت ، ضجيج هادىء كالذى يدور فى رأسى والذى لم يكن أمامى إلا أن ألقى فيه بنفسى .

وجريت على الكوبرى ثم توقفت عند المكان الذى يمكن للماء أن يكون غورافيه ، ماء ضارب إلى الصفرة تعلوه تجاعيد لا تلبث أن تتوارى حتى تظهر من جديد .

واسندت ظهرى إلى الدرابزين لأدقق النظر .

ولا أعرف كم من الزمان ظللت على ذاك الحال .

خيم الليل ، وفجأة وجدتنى فى طريق العودة إلى المنزل . ذلك الطريق المرصوف ، يليه طريق القرية الترابى . وبعد ذلك طريق أشجار الموز والمنزل .

وذاك هو السلم وتلك هى الصالة والستارة القطيفة ، وصوت بطرس يقول :

- « كنتى فين ؟ لكن قولى لى كنتى فين ؟ »

- « مشيت بعيد ونسيت الوقت ! »

- « ميحصلش كده مرة ثانية . أبو سليمان جهز الأكل وسخنّه ثلاث مرات على ماجيتى . »

كان يشير بذراعه إلى المطبخ ودرعه الأسمر بهت واستُهلك .

- « أنا أشتريت لك ساعة ومفيش بعد كده سبب لتأخيرك » . وأضاف يقول :

« إيه معنى أنك تدورى تمشى فى السكّك . أنا قبل كده قلت لك إنى محبّش أعرف إنك خرجتى من البيت بعد الساعة ٥ فاهمانى ؟ »

- « إيوه يابطرس . لكننى كنت أتخيل ماء النهر . كانت قاتمة تجذب المرء إلى بعيد . ليس المهم إلى أين ، النسيان ، فالله وحده يعرف إلى أين .

قال بطرس : « الرز ناشف مش مستوى ، ودى غلطتك . أنا عمرى ما كلت رز سىء بالشكل ده »

كان النهر ينساب ، يمر بالمدن والقرى ، يأخذك باسمك ودمك فى نزهة بين ضفتية حيث النساء يحملن الجرار وفروع الأشجار . أحيانا ترى حمارا يركعن وحده ، كما ترى أشجار الصفصاف البكاءة متناثرة هنا وهناك بجوار الماء . يسحبك النهر ويشدك تحت القناطر والكبارى لترى القوارب فيه أو ملقاه على ضفتيه ، ولتختلط نهايتك بنهايته بعد ذلك ثم يهوى بنفسه وبك فى أعماق البحر .

قال بطرس : « أم الخير جابت ٣ أطباق عسل ، فطرينى كل يوم الصبح من العسل وحُطى عليه قشطه صابحهْ »

ولم يكن النهر يتطلع إلى شىء منى . لم يكن يرغب فى موتى . لم يكن يتوقف لأحد إنما كان يستمر فى طريقه يحملك ، وعليك أن تجرى وراءه وإلا تركك على حافته . يتركك لموتك ، لموتك وحدك .

❁❁❁

وصرت بالتدريج أسجن نفسى بين مأساتى وبين عجزى عن إنجاز أى من الأمور . وأصبح كل ما يحيط بى ثقيلاً بما له من دلالة حتى صارت أهميته فى نظرى عديمة القيمة .

أصبحت صورة بطرس تتعدى حدوده كان فى نظرى ذلك الشرير الذى يظهر فى احلام الأطفال ، وكنت أحمله مسئولية أحزانى وأحزان الدنيا بأسرها . بدأ قبيحا بلا عاطفة ، يُميت الحب فى القلب ، يصلى بشفتيه فى الوقت الذى يسجنك فيه بمغالطاته فى الحساب . كان صدى

صوته وهيكل جسمه السمين فى كل موقف بينى وبين الأخريات ، بينى وبين الحياة ، ساحقا ما حقا للفرحة الرقيقة وللسعادة البريئة . كان هو اختناقى ، وحنيقى وضجرى . وكان خوفى منه يجعلنى على الدوام صامته .

وكانت صورته تزداد ضخامة حتى امتزجت بصورة والدى الذى لم يعرف يوما كيف يحنو على غيره ، واختلطت كذلك بصورة إخوتى الذين لم يقدروا سوى المال.

وكان البلاء شاملاً حين جند له بطرس تبلده وعدم اكتراثه ، وحين أصبح مثل أولئك الذين يعيشون على مبادىء مادية جافة تماما مثل جفاف أرواحهم . ولهذا كله ، كرهته أكثر من ألف مرة .

كنت وحدى ، لقد اقتلع سبب حياتى من جذوره . يرتد صوتى امام الجدران أو يشوه . لابد وأن يتدبروا ما أقوله . لقد بلغت الثلاثين أو كدت . أى أمل كان يتبقى لى فى الحياة ؟ الأفق محدود مسدود . هناك مثلى كثيرات كان ينبغى أن يدركن أن حياتهم مطحونة تحت وطأة حياة تفتقر إلي العطف والحب . ولسوف يفهمنى الجميع . وأذا كنت الآن أصرخ فصرختى من أجلهم ، وأن لم يكن هناك غير واحدة تدرك ما أقول ، فانى من أجلها وحدها أصيح من أعماقى وبأعلى صوتى وقدر استطاعتى .

لكنه وفى القريب سوف تكون هذه الصرخات متأخرة عن موعدها ، ستنعدم جدوى الأشياء ولن يتبقى غير العزلة عن النفس وانتظار الموت .

۞۞۞

بدأت أبعد أم الخير عنى لأن صُورة « مى » كانت عالقة بها على الدوام ، تتشبث بثيابها ، ولم أكن أحتمل ذلك . ورغم هذا لم تنقطع عن القدوم إلى المنزل بوازع من اخلاصها ومع ذلك كنت أتجنب لقاءها

وكنت كذلك أتفادى مقابلة أمال لنفسى الأسباب ولأنى أتمكن من فعل شيء لصالحها . وصرت أوثر الوحدة والصمت وأصبحت أرفض كل شيء حتى ذكريات أبنتى الغالية .

وغالبا ماكنت أحس بقدوم « ميّ » قبل أنا أنام ، أحس بها بجانبى ، بذراعيها يطوقان رقبتى ، بقدميها بين ساقى . كنت ساعتها أدفن رأسى فى الوسادة وألجأ إلى فراشى وأتدثر بأغطيتى . كنت أرفض بإصرار : « لا ! مش عايزه ...»

وكانت ذكرياتها عنيدة تصر على الحضور !

وذات ليلة لمحت وجهها ملتصقاً بزجاج النافذة يرقبنى ! نهضت فجأة وأزحت الستائر ، لتذهب « ميّ » ولا تعود ! ولمحت الأعمى هناك فى الطريق الذى يضيؤه ضوء القمر ، لمحته يسير ، عرفته بعمامته البيضاء الناصعة ، لكن ليذهب كذلك هو الآخر !

وبينما كنت أقف بجوار النافذة ، لم أجد « ميّ » مكانها ، لكنى وجدتها فوق كتف الأعمى الأيمن . لقد أدار كل منهما ظهره وشرعا يبتعدان ... ليذهب الإثنان ! ليذهب الجميع ! وأخيرا جذبت الستائر من جديد كى لا أرى النور وأبقى فى الظلام .

وحين أصبح الصباح كنت لا أقوى على النزول من السرير . تصلبت ساقاى تماما ، وطاردت الحياة منهما .

❁❁❁

ضرب بطرس جبهته وأخذ يقول : « إيه اللى هيجرا لى تانى ؟ « إيه اللى هيجرا لى تانى ؟ »

أخذ يندب حظه ويقول : « إيه اللى هيجرا لى ؟ » وبعدها شرع يسبنى ويتباكى على ما أصابه بسببى حتى اللحظة ، وعاد من جديد يحملنى مسئولية وفاة « ميّ » : « موتها كان بسبب الفسحة فى المدينة . بعدها مرضت ! »

وحينما قدم الطبيب سأله بطرس فى قلق عما إذا كان المرض معديا فأجابه : « بالطبع لا » « لكنها لن تستطيع الحركة ولن يكون بمقدورها أن تفعل شيئا لمدة طويلة . ومع ذلك فمن المحتمل أن تشفى خاصة أنها صغيرة السن »

وإنهار بطرس فى الكرسى وتهدل كتفاه على جانبين وأخذ يردد : « إيه المصايب اللى بتحصلىّ دى ! »

كان الطبيب قد جلس بجوار سريرى وأخرج الروشته من حقيبته الجلدية الصفراء ، ثم أخرج قلمه من جيبه وقال : « المرة دى منسيتشى القلم » كتب الدواء على مهل ثم أضاف أسفل الورقة توقيعاً تصعب قراءته . وبعدها قال :

« مش هتقدرى تتحركى مدة طويلة » ثم توجه إلى بطرس قائلا له : « البلاوى بتنزل مرة واحدة ، ودى تانى مرة بتجيلك مصيبة خلال اربعة شهور . مش كده ؟ قال بطرس وهو يتنهد : « ستة شهور »

هز الطبيب رأسه ونهض متجها إليه وبعدها وضع يده على كتفه ثم قال : « إصبر ، هو كده . البلاوى بتنزل مرة واحدة »

كان أبو سسليمان قد دخل حاملاً صينية سمراء فوقها ثلاثة اكواب من الماء وثلاثة من فناجين القهوة ، وكان الطبيب قد جلس مرة آخرى فوق كرسى آخر بالقرب من بطرس . أخذ كل منهما فنجانه وأخذ يشربه ، ولم أرغب فى تناول فنجانى وأخذت أرقب الرجلين وأنا فى السرير .

لن أتمكن من القيام مرة أخرى ، ولم أكن من جانبى أريد النهوض مرة أخرى كذلك ، وليتنى كنت أستطيع أن أطرد ما يدور فى رأسى أيضا . كنت أردد على مسامعى على الدوام أنى خلقت لسبب آخر ، أن شيئا واحدا يمكن أن يطلق حريتى وأنى عاجزة عن تحقيق ذلك الشىء

٭٭٭

لم يتأخر بطرس فى إستدعاء رشيدة . كتبت لها خطابا على المائدة المستديرة . وقد لاحظته والباب مفتوح أثناء ما كان يفتش عن كلمات الرسالة فى ذهنه . ولم تلبث رشيدة أن أرسلت إليه بالرد . أخذ يجوب سطور رسالتها والدموع تنهمر من عينيه ثم قال :

« زى ما يكون إنشال من فوقى حجر ثقيل ! »

بعدها كان بطرس لا يرجع إلى المنزل إلا فى أوقات الطعام ، وسرعان ما تعود أبو سليمان على إجلاسى كل صباح فوق كرسى مسنده مرتفع وبعد ذلك يدفعه أمامه إلى الصالون حيث أبقى فيه لا أطلب غير إغلاق النوافذ . ولأن الضوء الخافت يشيع النعاس حول حركة الأشياء فقد أتاح ذلك الفرصة لعينىّ أن تنام ليغمرنى بعدها التيه والنسيان .

ولم يكن بطرس يخف لهفته وأنتظاره ليوم وصول رشيدة . يومها رحل مع أبى سليمان بعد تناول الإفطار ليستقبل أخته على محطة القطار .

كنا فى فصل الشتاء حيث يرخى الليل سدوله فى عجالة يومها أشعلت لمبة الجاز التى بجانبى فوق المنضدة ، كنت أحس بأنى أتذوق لحظات وحدتى الأخيرة ، فقريبا سوف تكون رشيدة بيننا وسوف تخطو هنا وهناك فى أرجاء المنزل .

لمحت أول الأمر ظلالاً ، كان المفروض أن أصرخ لأنى لم أسمع قبلها همسا ولا حركة . أخذت تلك الظلال تطول على البساط وتصطدم بزاوية الحائط . بعدها تقابلت مع وجه تغرقه الدموع ، وأحسست برشيدة تقبلنى فوق جبهتى .

قالت : « إيه اللى حصل كمان لأخويا بطرس ؟ »

وأقامت رشيدة فى المنزل أو بالأحرى شغلت المكان الذى كان محجوزاً لها ، وسرعان ما أدركت إلى أى حد كان كل ما فى المنزل فى

انتظارها ، أدركت إلى أن الشيء يلوذ بالذى ينتمى إليّ ويحوى حوله ، يظل بالقرب من كل ما هو دائم ، من الأثاث الذى يعلوه التحف وتحيط به الستائر المتداخلة النسيج . وظلت رشيدة فى مكانها . كانت هى التى أختارت لون الجدار الرمادى الذى يميل لونه إلى لون الرخام .

بدأت رشيدة توجه الأوامر إلى أبى سليمان بصوت حاد : « هات الشنط ولا تتأخرش . أنت عارف إنى محبّش الأنتظار » وبينما هو ينزل السلم بخطواته المرهقة ، كانت تجوب المنزل ذهابا وعودة .

خلعت حذاءها ولبست الشبشب القطيفة ذى اللون الأزرق الذى كانت قد أخرجته من حقيبة كبيرة دون أن تعيرنى أى انتباه . أحسست بشبابها يعود فجأةولم تكن هذه السنوات الستة عشر التى قضت من عمرها قد فعلت شيئا يدنيها من الشيخوخة . عادت تجد نفسها تشارك أخاها حياته من جديد . أخذت تصول فى حجرة وتجول فى الأخرى وتتفحص قطع الأثاث ، وتوجهت من فورها تفتح دولاب ملابسى

قالت : سأرفع ثيابك ، إيه فايدتها وإنتى فى الحالة دى ؟ أحسن يكونوا فى شنطتى .

وبدأت بالفعل تجمع ملابس من الدولاب وترتبها ، بينما صعد أبو سليمان حاملا فى يده حقيبةضخمة تحيط بها سيور من الجلد . كان يحمل تحت إبطه حقيبة أقل حجما مربوطة بالحبال وفوق ظهره غرارة خضراء من الكتان . كان يسير بصعوبة بالغة .

وحينما رأته رشيدة فى مدخل الباب قالت : « أخيرا جيت ! »

أخذت تخرج الثياب الصوفية والمعاطف وقالت : « كل ده لازم يتنظم بطريقة ثانية » وهكذا تناثرت ملابسى فوق الكراسى والمناضد وسقط بعضها على أرض الحجرة . ثم قالت : « لازم الدولاب ينضف ، وأبو سليمان يجيب اللى أنا عايزه »

وكـان أبو سليـمـان يسـتـجـيب ، يعـود ومـعـه طست ملىء بالماء والصابون وفرشاة بينما رشيدة تفرغ الحقائب . وهكذا استقرت رشيدة دون أن تعيرنى أى اهتمام فصرت كالشىء المهمل الثقيل الذى لا بد من الصبر على وجوده وتقبله .

وانقضى على هذا النحو عامان حسب ما أذكر .

❂❂❂

ومع بداية المرض ، كانت أمال تحضر لى جبن عمها أبو منصور . كانت عيناها تغرورق بالدموع عند رؤيتى . وكانت رشيدة لا تتوانى عن منعـهـا من دخـول الصـالون . لم تكن تحب رؤيـتـهـا لأنـهـا كـانت ترى أنى أشبهها فى كثير .

وحينما رأيتـها لآخر مرة ، أحسست بقدرتى على أن أحدثها عن تماثيلها من جديد . ووعدتنى ألا تتخلى عنها وقالت : « أوعدك! » قالتـها وعاطفة جياشة تجتاح صدرها . وكان ذلك أخر شعاع يعكس الارادة بين أضـلعى ، تـلك الإرادة التـى هى بمثـابة الخـيـط الــذى يربـط بـينى وبينها .

كنت أقـول فى نفسى أنه لو نجت آمـال من مـحنتـهـا ، فلن تكون حياتى عقيمة وسأكون قد قمت بأداء رسالتى .

أيام قضيتها وأخرى قضيتها وراء النوافذ المغلقة .

كنت أحيـانا أسـمـع صـوت أم الخـيـر وهـى قـريبـة من المطبخ ، أسمعها تسأل عن صحتى . كانوا يقولون لها أن الزيارات تسبب لى المتاعب ، وظلت خطوات رشيدة وشكاواها وظهر ظلها فوق الجدران من جديد . كان كل ذلك مثـل جـدران أقيمـت حـولى تحبسـنى وكـأننى فى زنزانة .

لم يكن وجودى يبعث الضيق فى نفس رشيدة وبطرس ، فقدكان حديثهما عنى كما لو كنت غير موجودة . رشيدة تحرص على تحيتى حين تصحو من نومها ، وبطرس لا ينسى أن يطبع قبلة على جبينى كل مساء مع ضحكة من الأعماق لحظتها كانت كل أفكارى عن اليوم تتدافع وتتزاحم لحظة إحساس بشفتيه تلمسانى بشرتى .

كانت آخر وثباتى النشطة تتركز حول تلك اللحظات : حين ينفتح الباب ، أنتظر فى لهفة أن تلمس شفتاه الداكنتين جبهتى ، كنت أحس أن يوما سيأتى لن أتمكن فيه من الحصول عليها .

ماذا أقول ؟ وماذا قلت ؟ الأمور تتداخل وتختلط بطريقة رهيبة هناك ضجيج فى رأسى لا يفتر . كل شيء تضيع معالمه . ماهذا الضجيج وذاك التشويش الذى بداخلى ؟

يُخيل إلىّ أن صيحات تُردد إسمى واسم بطرس . الصياح يقترب ويقترب . ترى ماذا جرى ؟

خطوات وخطوات تتدافع فوق السلم ، أنا لا أدرى ولا أريد أن أعرف شيئا على الأطلاق ، كما لا أخشى شيئا على الأطلاق . ليصعدوا جميعاً بصيحاتهم وبخطاهم ! ليتجمع الجميع فى الحجرة ! ليأتوا بأسرهم !

لقد مت فى هذه القصة . كل شيء يخمد بداخلى .

( ١٢ )

فى الصالة بالقرب من البساط القطيفة الذى انتزعه الناس ، تقف أمال على أطراف اصابعها ، تحاول أن ترى ساقين .

وكان حسين أول الذين دخلوا ، رأى كل شيء رغم ضعف بصره . وتلاقت صيحات الآخرين وتقابلت مثلى عصى تتضارب . رشيدة تصيح بأعلى صوت ، برسوم يحس بالحرارة تسرى فى ذراعيه :

« إرموها برّه ! إقتلوها ! » النساء تلطم على صدورهن ويوّلون .

وأم الخير تمسك دموعها ونصْفُ أصابعها فى فمها . كانت تريد أن تنسى ، ألا تنظر إلى سامية ولا إلى الرجل الذى مات .

ربما يقتلون تلك المرأة فى مكانها ويقترب فريد بوجهه الشاحب المترهل ليقول بأعلى صوته وقطرات العرق الكبيرة تسيل على وجنتيه : « هيْدوسوكى بالجزمه ! »

لكن سامية بعيدة ، تبدو وكانها لا تلتقط الأنفاس . ولا يدل على استمرار حياتها غير جلستها على الكرسى وجذعها المستقيم ، وذراعاها المرتفعان قليلا بشكل يوحى أنها ستنهض واقفة .

وأمال هناك تنظر إليها ، تحملق فيها بطرف عينيها .

« سوف تنجو أمال ! » هل قال وجه سامية الشاحب ذلك ؟ وجهها الحجرى الجامد . إن أمال تسمع كلماته الصامتة ، انها تشعر بكثير من الأشياء وبمقدورها أن تصيح منها جميعا مرة واحدة . لكن بأى الكلمات يمكنها أن تصيح ؟

أما رشيدة فلديها ماتقوله ، ستقول كل شىء طوال الأيام القادمة ! وحين تتكلم سيتلاقى حاجاتها ويرتسم تحت شفتيها السفلى خطان متجهان إلى اسفل ، سيحدث صوتها صريرا مثل صرير المبْرد فوق المعدن ، وسوف يحيطون بها ويصيحون معها .

وصل المأمور فجأة ، تسكت الأصوات وتُفرق الناس وتلته خطوات العسكر ، خطوات يدب فوق درج السلم . جاءوا فى طلب المرأة ، والقبض عليها ، جاءوا يأخذونها فى عربة « المساجين » المنتظرة فى الحارة ، أمر المأمور العساكر بسرعة الإنجاز لأنه يريد أن يتناول العشاء فى بيته .

لقد تزوج منذ شهر من فاطمة أمام عينيه ، فتاة جميلة كالتفاحة في الرابعة عشرة من عمرها .

كان المأمور يرى عروسة فاطمة أمام عينيه ، يراها تجلس مرتدية ثوبها الأخضر الذى إختاره لها حتى يصل زوجها فتنهض لتترك له الكرسى .

أمر المأمور الناس بالخروج من الحجرة ، ولم يبق غير أربعة رجال كان عليهم أن يحملوا الكرسى . رفعوا المرأة التى لم تتحرك . كانت تبدو وكأنها غريبة عن كل ما يجرى حولها لدرجة أن المأمور لم يفكر فى سؤالها .

مر الرجال الأربعة بالصالة ، وحاولت أمال أن تصرخ ذات لحظة لتقول : « أنا هنا ! » لكن سامية ربما لا تسمعها . ألم يكن وجود أمال وحدها وسط هذا الجمع من أجل أن تنتزعها من بين أيديهم ؟ ترى ماذا ستفعل سامية بعد ذلك العاجزة المتحجرة الجامدة ؟

ونزل الرجال الأربعة درج السلم فى صعوبة ، يتقدمهم أحد رجال الشرطة . كان مع كل خطوة يدير ظهره ليقول : « يمين شوية » « شمال شوية »

ولم يبك غير فكيهة فوق السلم ، كانت تطل بوجهها الذى تتأثر عليه آثار مرض الجدرى . وضعت ذقنها على الدرابزين وأخذت تنظر نظرات الحقد بعينيها الشبيهة بعيون البوم ، تنظر وتقول : « واخدين المجرمة ! »

بعد ذلك أسرع الجميع ، أخذوا يهبطون درج السلم تساعدهم فى ذلك أذرعهم ، بينما أخذ رجال الشرطة يفرقونهم بعصيهم .

شرع الناس فى الصباح : « إرموها ، دوسوها بالجزم ! » والمرأة لا تسمع ولا ترى ، حتى الأعمى الذى ظل مكانه رغم هياج الناس

مستندا إلى الجدار ، أخذ يقول وعمامته البيضاء فوق رأسه :

« إرموها فى الأرض ! دى الشيطان راكبها ! »

وتشنجت يده وأحس بالأرض تغوص تحت عصاه ، أخذ يضرب الأرض ويضرب حتى يدفن غضبه المكتوم إلى الابد .

❁❁❁

ولم يبق فى الدهليز غير أمال لا بد أن ترحلى من هذا المكان ياأمال ، إرْحلى مع الذين مولدون من بين أناملك ، الذين هم أشبه بالأحياء لكنهم ليسوا أبدا أحياء . إنها ليست وحدها وعلى الجميع أن يرحلوا عما يسبب الإختناق ، عن ذلك الخوف الذى يتحول إلى عفونه .

وسارت أمال نحو درج السلم شمرت ثوبها فوق ركبيتها ، ثم وقفت تنتظر تجمع أنفاسها وبدأت فى الجرى السريع . وجرت أمال .

صاحت فكيهة : « دِى أمال بتجرى ! ، أمال خايفة ! »

ومع تلك الصيحة كف الأعمى عن ضرب الأرض ، أخذ أنفاسه فى هدوء وأسند ظهره إلى الجدار ثم قال :

« أمال بتجرى ! ياما هتجرى ! ياما هتجرى ! »

تمت

❁❁❁

رقم الايداع : ١٩٩١/٥٢٩٧
I.S.B.N
977 - 07 - 0074 - 0

روايات الهلال تقدم

# حكاية شوق

تأليف

احمد الشيخ

تصدر : ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩١

# هذه الرواية



## اندريه شديد

● ولدت اندريه صعب شديد" فى مدينة القاهرة عام ١٩٢٩ من عائلة ذات اصل لبنانى

● حصلت على دبلوم الصحافة من الجامعة الامريكية . ثم سافرت مع زوجها لوى شديد للاستقرار فى باريس .

● نشرت الرواية والقصيدة . والمسرحية . والقصة القصيرة . من أهم رواياتها « نوم الخلاص " ١٩٥٢ و « اليوم السادس " ١٩٦٠ و« دروب الرمل » عام ١٩٨٢ . و« نفرتيتى وحلم فرعون » .

● تمثل جيلا من الكتاب المتميزين الذين يكتبون أدبا عربيا باللغة الفرنسية . منهم البير قصيرى ، وجورج حنين وجويس منصور .

● حصلت على العديد من الجوائز الاوربية منها جائزة جونكور فى القصة القصيرة

● تجئ أهميتها فى أن كل أدبها مكتوب عن مصر . وعن هذا الامر تقول : « ليست لدى النية ان اقتلع جذورى بشكل مأساوى . احس اننى انتمى الى الشرق والغرب . وقد كتبت كثيرا عن مصر ولبنان . وهما الوطن الحقيقى بالنسبة لى ..

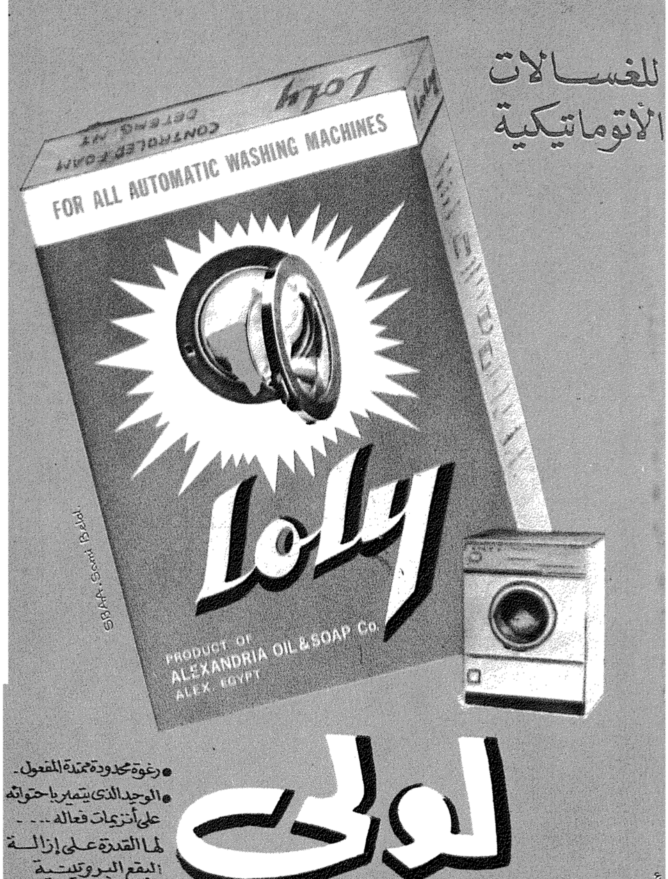
ستصبح « سامية » نموذجا ادبيا يذكره النقاد دائما وذلك تبعا للبراعة الفنية التى صورتها بها الكاتبة اندريه شديد .

لقد اصبحت « سامية » سلعة يبيعها رجل . ويشتريها رجل آخر فى ظروف بالغة الحساسية . الاول هو ابوها . والثانى هو زوجها الذى يكبرها بثلاثين عاما .. والذى اخذها من سجن العائلة ليضعها فى سجنه هو : الزوجية .

المرأة فى هذه الرواية ترفض ان تكون « شيئا » . فهى كيان انسانى يستمد وجوده من كل شىء حر حوله . ليست مجرد قطعة أثاث يجب الإستفادة منه واستعماله عند الحاجة .. بل هى نسمة حرية تنطلق مع الطيور المهاجرة من الغرب الى الشرق ..

« النوم الخاطف »

رواية مصرية قلباً وقالباً .. رغم انها مكتوبة باللغة الفرنسية . نجحت فيها الكاتبة ان تعبر عما يعتمل فى النفس من احاسيس ومشاعر المرأة المصرية .


للغسالات
الأتوماتيكية
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
CONTROLLED FOAM
Loly
Loly
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT
SBAA. Samt Beld.
لولى
• رغوة محدودة ممتدة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوائه
على أنزيمات فعاله ...
لها القدرة على إزالة
البقع البروتينية
أسلوب عصرى للتنظيف
ذو أداء فعال متميز
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون